التربية النفسية
في المنهج الإسلامي

د. حسن الشرقاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

طبقت الإنسانية نظما وفلسفات تربوية وما تزال تطبق بقصد الوصول الى صياغة نهائية تمثل التكامل الاخلاقي الذي يتوجب أن يتحقق للأنسان .

وقد ابتعدت تلكم الفلسفات والنظم التربوية عن الاصول وركزت على الفروع أو بمعني آخر اهتمت بالتجارب الإنسانية السابقة واستنبطت منها احكامها ونظرت الى اختيار نظمها الحاتية على أسس أفقية ، دون أن تستقي اصولها من هدى الدين أو تستمد احكامها الاساسية من كلمات الله التامات ومن سنة نبية محمد ﷺ ، وهى النظرة الرأسية التي يجدر أن تكون اساسا لنظمنا الحياتيه .

والحق أن هناك بونا شاسعا بين النظرة الأفقية والرأسية في بناء فلسفتنا التربوية ونظمنا الحياتية ذلك أن النظرة الافقية إنما هي عملية اجترارية فحسب ، تنسحب على التجارب الانسانية الماضية والتي يشوبها الخطأ كثيرا والحق قليلا ، ولا يمكن أن تكون النبع الذي يستقي منه الفكر والسلوك العملي ، .

فالإنسان اينما كان محدود القدرات ، قاصر عن معرفة كنه الاشياء ، عاجز عن إدراك الاسباب والمسببات العديدة والتي

لا يحيط بعلمها الا الله تعالى .

ولذلك كان الاعتماد على كلمات الله وحكمه وامره تعالى ضرورة حتمية ، إذ انه بدون ذلك الإعتماد يمضي الإنسان في حلقات مفرغة ، بحيث يصبح سلوكه المرفوض بالامس مقبولا اليوم ، وماهو جديد من الفكر الانساني يمكن ان يكون قديما . . . .

إن استمداد النظم الحياتية بعامة وفلسفات التربية بخاصة من كلمات الله وهدى رسوله الامين ﷺ ، هو بمثابة الاستضاءة بالنور بعد الظلمة ، وبالصلاح بعد الفساد ، كشمس ترسل اشعتها المشرقة فتعم بطلعتها القريب والبعيد ، وينتشر بفضلها العدل والحق والرحمة جميعا ..

فعلى المهتمين بشئون التربية الاسلامية ، أن يغرسوا بذور النظام الاسلامي الحياتي بين ربوع أفئدة الأمة ويعملوا على رعايتها ، ويسقوها بهدى السنة الشريفة حتي تترعرع ثمارها وتصبح لذة للآكلين ..

ولن يتحقق هذا الهدف النبيل الا بتحديد المفاهيم ، والتأكيد على المنهج المتبع ورفض كل صور التقليد والمحاكاة الآلية للنظم البشرية التربوية غير الملتزمة بالنظام الإسلامي ..

إن هذه المحاولة التي قمنابها لإثبات أن منهج المسلم الحياتي في مجال التربية قمين أن يكون المنارة التي تغذى السلوك الإنساني ، يجب أن يتبعها محاولات أخرى من أجل ذلك الهدف النبيل ، حتي لايتهم المسلمون بأن ليس لديهم نظرية في التربية كما يتهموا ـ كذبا وإفكا ـ ان ليس لديهم نظرية في الاقتصاد ..

إن هذا الكتاب يعرض في دراسة مقارنة تفوق المنهج التربوي الإسلامي على المناهج والنظم والفلسفات البشرية والوضعية ، وهو بهذا يعين المسلم في سلوكه نحو التكامل الاخلاقي . . .

دكتور حسن الشرقاوي

* * * * * *

الفصـــل الأول

مفهوم التربية في النظرية الاسلامية

من الملاحظ أن من يكتب في الفكر التربوي الاسلامي ، لايهتم كثيرا بالمصطلحات التي يستخدمها في مناقشاته وآرائه التربوية ، على أساس مثل سائد ، فحواه أنه لا مشاحة في الاصطلاح ، ومعني ذلك أن أي مصطلح يمكن ان يؤدي المعني ، يستخدم حتي لو كان له أبعاد ، أو مضامين ، لا تدخل ضمن الفكر التربوي الاسلامي ، ومثال ذلك مصطلح « الصراع والغريزة أو الموضوعية أو العلمانية » ، وغير ذلك من المصطلحات التي يمكن ان يقصد بها معاني محددة اتجاها فكريا معينا .

ومن ناحية أخرى ، هناك اختلاف بين علماء التربية في مفهوم التربية الاسلامية ، فنجد لفيفا من العلماء [١] يركز على أن مفهوم التربية ، انما يقتصر على التعليم فحسب ، أو بمعني أكثر تحديدا على المنهج الدراسي ، بينما ينظر علماء آخرون الى مفهوم التربية الاسلامية على أنه من الموضوعات العامة التي تهم جموع

---

(١) المقصود بهؤلاء العلماء (المستغربون) وهم الذين تثقفوا ثقافة غربية وتأثروا بالمنهج الغربي دون الإسلامي . للمزيد راجع « نحو علم نفس إسلامي » للمؤلف ، الهيئة العامة للكتاب وكذلك « نحو منهج علمي إسلامي » للمؤلف دار المعارف المصرية .

المسلمين ، ومن ثم فهي تعالج موضوع التربية على أساس أنه معالجة للفكر التربوي في الاسلام ، وعلى هذا ، فالتربية الاسلامية تهتم بالكون والانسان والحياة جميعا .

ولا شك أن النظرة الاخيرة تواكب الفطرة السليمة ، وتتمشي مع مفاهيم المسلم وقيمه الدينية ، لان تحديد العملية التربوية في المنهج الدراسي معناه ، أننا نجعل مجال التربية ، المواد الدينية من فقه وتفسير وعقيدة فحسب ، دون اشتراكها مع العلوم الاخري المكملة لها .

ولا ريب في أن ذلك معناه ان التربية انما هي تخصص ضيق ، مثل أي علم من العلوم ، ونحن نتصور أن العلماء الذين ينحون هذا المنحي ، قد تأثروا كثيرا بالفكر الغربي الذي يهتم بالتخصصات الضيقة .

واذا كان ذلك مقبولا في العلوم الطبيعية والتطبيقية والعملية ، فان ذلك يعد مرفوضا من وجهة النظر الاسلامية .

ذلك أن هذه النظرة للتربية الاسلامية بعيدة كل البعد عن الفكر التربوي الاسلامي .

لذلك فاننا نتفق مع آراء علماء التربية الاسلاميين من المحدثين ، [1] والذين يقررون بأن التربية الأسلامية ، انما هي تلك المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في اطار فكري واحد ، مستندا الى المبادئ والقيم التي أتي بها الاسلام ، والتي ترسم عددا من

---

(١) بخلاف أصحاب النظرة المتجمدة الذين لا يريدون الإنفتاح على العالم وبخلاف (المستغربين) ـ الذين سبق الإشارة إليهم ـ .

الاجراءات والطرائق العلمية التي يؤدي تنفيذها الى أن يسلك سالكها منهجا يتفق وعقيدة الاسلام .

ونحن نذهب مع بعض الباحثين في مجالات التربية الاسلامية ، [1] الذين يقررون أن مصطلح التربية يشتمل على مفهومين متداخلين :

الاول : مفهوم عام يتعلق بالتربية .

الثاني : مفهوم خاص يتعلق بالتعليم .

والمفهوم الاول انما يتعلق بالعملية التربوية ككل ، أي انه يغطي المجتمع المسلم باعتباره ظاهرة مرتبطة بالحياة . لا تتوقف في زمن أو مكان معين ، اذ أن العملية التربوية تدخل في المؤسسة التعليمية ، كما تدخل في البيت ، كما تدخل أيضا في المجتمع المسلم على مختلف مستوياته .

أما المفهوم الخاص للعلمية التربوية . فهو الذي يقتصر على عملية التعليم ، أو على التعليم الاسلامي كفرع من فروع الفكر الاسلامي . الذي على أساسه توضع البرامج التعليمية ، وتختار المواد الدراسية ، وتصاغ الاهداف التربوية في كل مرحلة من مراحلالتعليم ، وتبحث في علاقة الادارة المدرسية بالطالب ، والمنهج والبيئة ، وغير ذلك . ولا شك أن المفهومين يتداخلان بعضهما مع بعض ، ولا يمكن التمييز بينهما بسهولة ، الا اننا نهدف من وراء تعضيدهما الى تعريف مصطلحي التربية والتعليم . تسهيلا

---

(١) راجع « منهج التربية الاسلامية » ، محمد قطب ، دار الشروق .

للبحث .

وفي هذا المؤلف نحاول أن نستخدم المفهومين معا ، فنحن من جهة نرسم الاهداف والغايات للتربية الاسلامية ، باعتبارها مستمدة من القرآن الكريم والسنة المحمدية ، ونبين القواعد الاساسية في بناء الانسان الصالح في الاسلام ، ونبين الى أي حد تختلف نظرة الاسلام التربوية عن الفلسفات ونظريات التربية في الامم المختلفة ، ونصف سلوك هذا الإنسان وطريقة تفكيرة وخصائصة المميزة ، والتي ينفرد بها دون غيره ، باعتبار أن التربية الاسلامية ، لها هدف أساسي وهو ربط الانسان بربه ، فمنهج التربية الاسلامية منهج رباني وفطري ومتوازن وشامل وواقعي وايجابي .

ومما لا ريب فيه أن هدف التربية الاسلامية الاساسي هو التربية الخلقية ، التي ينبثق عنها سلوك المؤمن ومنهجه وطريقة تفكيرة ، فارتباط المسلم بدينه انما يحدد مساره في دنياه ، وما دامت تربيته الخلقية على هذا الاساس النقي التقي الورع ،فان ذلك سيكون نبراسا يضيئ حياتة المستقبلة ، اذا ماعمل في أي فرع من فروع العلم والمعارف والصناعات .

ولا يمكن ان يقتصر الانسان على تعلم حرفة من الحرف . دون أن يتعرف على أخلاقيات هذه الحرفة ، ومن ثم يتوجب عليه ان يتربي خلقيا ، مع تعليمة الحرفة التي سير تزق منها .

واذا ما تأملنا فلسفات التربية الغربية الحديثة والمعاصرة ، لوجدنا أن التربية الاسلامية قد سبقتها بقرون عديدة ، في المناداة بالاساليب التربوية التي تنادي بها الان .

ان أهم ما تنادي به التربية الاسلامية ، هو اقتران الدين بالدنيا في الفكر والسلوك والاخلاق . ذلك لأن اهمال الجانب الديني في العملية التربوية ، انما يعكس ظلمة القلب . ومن ثم اتباع الهوى وغلبة الشهوات والانانية . وهو الأمر الذي يقود الانسان الى الضلال المبين ، ولا يمكن أن يتأتي ذلك الا بالفهم الرشيد والاقتناع والايمان ، والبعد عن طريق التلقين المتبعة في الجامعات والمدارس ، والبعد عن الجوانب السلبية التي تشتت تفكير الطالب ، ثم التركيز على الجوانب الايجابية في العقيدة الاسلامية ، والتي يمكن أن تؤثر في السلوك . وكعوامل مساعدة يجب استخدام وسائل اقناعية ليتعرف الطالب على الحقائق اليقينية ، ليزداد ايمانا ويقينيا بالمنهج الاسلامي . كما أنه يجب تكوين عاطفة قوية نحو دينه القيم وشريعته السمحة ، لكي تحبب اليه موضوعات التربية الاسلامية .

فالتربية الاسلامية إذن ، هي تلك المفاهيم الاسلامية العظيمة التي تؤدي بالانسان إلى عملية التخلية والتحلية ، التخلية من الأوصاف المذمومة ، والتحلية بالأوصاف المحمودة ، فهي تثقيف للعقل ، وتقوية للجسم ، وتزكية للنفس . وتطهير للقلب ، دون أن يكون ذلك تضحية بأي من القوى على حساب قوى أخرى ، فهي عملية توازن وتناسب وتناسق وانسجام بين قوى النفس ، وبين قوى النفس وعلاقاتها بالله والكون والحياة والناس جميعاً .

فالتربية بمعناها العام . إنما تدعو الانسان إلى أن يرتبط بخالقه ، وتسلك سلوكاً يتفق مع عقيدة الاسلام ، وهذا معناه اشتمال التربية

على العملية التربوية والتعليمية معاً ، سواء في البيت أو في المدرسة أو في المجتمع .

وهذا يختلف عن نظام التربية مثلاً في المجتمع الشيوعي أو في المجتمعات الاشتراكية ، إذ توجه وسائل التربية إلى فلسفة عن الكون والحياة والانسان ، تجعله يفصل بين العقيدة والتعليم . وكأن التربية إنما تتعلق بالنجاح الدنيوي فحسب ، ولا يختلف كثيراً الفكر الرأسمالي عن الفكر الاشتراكي في العملية التربوية ، فكلاهما ينحى هذا المنحى ، وهو فصل العملية التربوية بمعناها الواسع أو الضيق (التعليم) عن الله والدين واقتصارها على نظم وضعية وفلسفات مادية ، تبتعد كثيرا عن هدف التربية الاسلامية .

إن هدف التربية الاسلامية إذن ، إنما هو جعل الفكر التربوي في خدمة الدين ، على أساس تحقيق ذلك على مستوى الفرد والعائلة والمجتمع والأمة جميعاً .

لذلك فنحن نطالب باعادة صياغة المناهج التعليمية ، صياغة اسلامية ، تسمح للطالب أن يطبق مفاهيمه وقيمه وفكره التربوي في عمله وحياته ، فيصبح بذلك داعية لله ، غايته أياً كان عمله . رفع راية الاسلام والذود عن دينه الحنيف ..

إن كل معرفة للطالب في مدرسته أو في أى مؤسسة ثقافية جامعية أو شعبية ، إن كل معرفة له بالانسان والكون والعالم والله . واستثمارها لخير الانسان وأمنه ، وسعادته في الدنيا والآخرة . هى أعظم رسالة يمكن أن يؤديها في حياته الدنيوية .

وإذا تعرف الانسان على خالقه وفاطره ، وعمل بأوامره ونهى

عما نهى عنه . فان ذلك الانسان هو الجدير بأن يكون خليفة الله في أرضه والذي هو أفضل الناس .

فطرة التربية الاسلامية

يقول الحق تعالى :

﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾

(الروم : ٣٠)

إن الاسلام قد انفرد دون الأديان جميعها بأنه دين يواكب الفطرة السليمة ، والعقل الرشيد . والخلق القويم ، والنفس المطمئنة .

ومما لا شك فيه أن الفطرة هي الأصل الجامع . وذروة التشريح الشامل والأساس الذي يرجع إليه في المسائل كلها ، وأيضاً بالفطرة يهدي الناس إلى استنباط الأحكام ومعرفة القوانين الكلية التي تستخدم منها المسائل الجزئية .

إذن الفطرة السليمة هي حال وفعل وعمل للنفوس المسترشدة بالحق لا تقبل الفساد في الأرض وتؤمن بالوسط العدل ، فلا ابتذال ولا اسراف ، ولا تقتر في بخل أو شح .

إن أصحاب الوهم من المتفلسفين الذين يدعون نسبية الفضائل ، وإن الانسان عليه أن يجرب كل شيء ، فيأخذ ما يصلح له ، ويرفض ما لا يصلح له . هؤلاء يعيشون في وهم باطل ، وزعم كاذب وقد ابتلوا باليأس والقنوط ، وهذا ما يتنافى

مع الفطرة السليمة التي فطر الانسان عليها ...

الدين إذن فطرة في الانسان ، والفطرة هي موافقة العقل للشرع ، والدين هاد للعقل من الجنوح والجمود والتهور والجبن والسلبية في الأخلاق والعلم والسلوك...

والفطرة لا يختص بها نفر من الناس ، أو شعب من الشعوب ، أو زمان دون زمان أو حضارة دون حضارة ، إنما الفطرة التي قرن بها الدين الاسلامي مشتركة بين البشر جميعاً ، مسلمهم وكافرهم ، غنيهم وفقيرهم ، أسودهم وأبيضهم ، عربيهم وعجميهم .

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾

(الروم : ٣٠)

لقد خلق الله الناس شعوباً وقبائل متباينة العادات ، ومختلفة الطبائع متعددة التقاليد ، متفرقة الأخلاق ، إلاّ أنه جعل فيهم في الوقت نفسه فطرة جامعة ، تعين العقل على اتباع ما استهدف الله من الدين ، فالفطرة حقيقة بديهية للمتأمل ، واضحة كل الوضوح لصاحب القلب السليم والنفس المستقيمة ..

ولحكمة الله البالغة فقد تحجب بعض الأمور والأسرار الكونية عن المدركات الحسية كالسمع والبصر والتذوق واللمس . والتي يتعذر كشفها للنفس الغافلة يغمض على العقل المغرور تفهمها . فلا تتعرف على حقائقها ، وهنا يأتي أمر الله الصادر إلينا لينبهنا ويرشدنا ويوجهنا إلى خطورة هذا الميل المخالف للفطرة السليمة :

﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾ (الكهف : ٢٨)

إن السالكين لطريق الله ، يتجنبون الانحراف عن الفطرة ، والميل إلى الأهواء والبعد عن الحق الواجب الاتباع ، وذلك من فضل الله ورحمته على المؤمنين . لأن العمل بالشريعة الاسلامية وتنفيذ أحكامها ، هو بمثابة الامساك بعجلة القيادة في طريق وعرة المسالك .. وأن الاتجاه إلى معرفة أحوال الدين الحنيف ، ينير للمتأمل الطريق الموصل لحكمة الله البالغة . إذ به يشهد المؤمن على أحدية الله تعالى ، ويثبت القلب إلى القول الثابت ، وينير للعقل ما استغلق عليه فهمه وادراكه .

إن بعض العلماء[1] يعتقدون مثلاً أن جريمة الزنا عمل لا أخلاقي ، لكنهم لا يوضحون للناس أنها تخالف الفطرة السليمة ، إذ أنه مما لا شك فيه أن الزنا نوع من الافساد ، وابتعاد عن العدل بما ينطوي عليه من الفوضي في العلاقات والأنساب ، حيث يستسهل الزاني الحصول على شهواته بدون الطريق الشرعي الذي يحمله مسئولية كفالة الأسرة والانفاق عليها . وعلى هذا يعد الزنا مناقضاً للفطرة السليمة ..

والأمر كذلك بالنسبة لمعاقرة الخمور ، فان العلماء ينظرون إلى أن الشريعة تحرم الخمر حيث أنها تذهب بالعقل ، فاذا أريد قياس أسباب التحريم على قواعد الفطرة السليمة ، لتبين أن مداومة شرب الخمر يفسد الجسم ، والعقل . كما أنه يفقد الناس غيرتهم على أنفسهم وعلى عرضهم جميعاً . كما أنه اعتداء صارخ على الغير

---

(١) المقصود بهؤلاء العلماء ، أصحاب الفطرة أو المنهج العلمي الحديث من المستغربين الذين يفصلون بين العلم والدين .

ومصلحة المجتمع وكذلك بالنسبة لجميع المحرمات .

وأهم ما يظفر به المتأمل في التشريع الاسلامي . أنه يستهدف الاصلاح والصلاح ، وأن غايته التيسير والرحمة والهدى ، وعندما يدعو الاسلام إلى الصلاح والاصلاح ، إنما يدعو إلى الحق والعدل والخير والحكمة ، وكلها مقتضيات الفطرة السليمة .

﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾

(النحل : ١٢٥)

إن نظرة الاسلام للعلم على أنه مواكب للفطرة ، تعد فطرة أكثر شمولية ، وأعمق وجوداً ، إذ الفطرة أصل جامع ، وأساس متين ، ولنضرب لذلك مثلاً يبين لنا الحكمة من التشريع الإلـهي . ففي حالة تعارض فعلين أو خاطرين فان العاقل عليه أن يختار لفطرته السليمة الأصلح والأدوم ، كما أن العاقل يمكن أن يختار الفعل الآخر عندما تتغير الظروف أو الملابسات أو الزمان أو المكان .

وفي كلا الحالتين فان هذا العاقل لم يخرج عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، فاذا كانت معاقرة الخمر كما أمرت الشريعة يعد حراماً وهذا مقتضي الفطرة ، لأن دوام معاقرتها افساد للجسم والعقل ، فان تناول الخمر عند عدم وجود ماء يقصد به عدم الموت عطشاً ، يعد أيضاً من الفطرة السليمة[١] ، ففي هذا الموقف ضررين يجب تغليب أحدهما على الآخر ، الأول يؤدي إلى افساد الجسم ، والآخر يؤدي إلى الموت عطشاً .

---

(١) عند الضرورة إنما يتمشي مع العقل الرشيد والقلب السليم والنفس المستقيمة كعدم القطع عند المجاعة .

فاذا حكمنا بمقتضي الفطرة السليمة ، فاننا نختار الفعل الأول ، وتفضله على الفصل الثاني ، إلاّ أننا من ناحية أخرى علينا أن نستغني عن الفعل الأول بانقضاء السبب أي بوجود الماء المباح ، ومن ثم تعد مداومة معاقرة الخمر مخالفة للفطرة السليمة ، والعقل الراجح السديد ...

غـاية التربية الاسلامية

إن المتأمل في آيات الله البينات ، يتبين انفراد المنهج الاسلامي الرباني بمفاهيم تربوية لا نجد لها مثيلاً في المناهحج والنظم والفلسفات التربوية البشرية ، لأن هذه المفاهيم الربانية تستهدف خير الانسان ، لا في الدنيا فحسب ، وإنما في الدنيا والآخرة ،

ويتبين للمتأمل في الآيات القرآنية أن أساس التربية يكمن في عدم الشرك بالله ، ويمكن أن يندرج تحت الشرك بالله القيم والمفاهيم التربوية الأخرى ، وذلك من واقع الآيات القرآنية ، ونمثل لها ببعض الفضائل الأخلاقية والسلوكية كما وردت في كلام الله كأسلوب تربوي صالح في الحياة الدنيا والآخرة :

١ ـ عدم الشرك بالله .

٢ ـ إقامة الصلاة .

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١ ـ عـدم الشرك :

تمضي الحياة بحلوها ومرها ، بسعدها وشقائها . لتسلم الرسالة

من جيل إلى جيل ، وتعطى الأمانة إلى الشباب الصاعد في رحلة العمر المتجددة ، والدين النصيحة ومن لم يتعظ من والديه يلقي من امرة شططا ...

وأن أول ما يتوجب على الآباء تلقين ابنائهم به ، هو التركيز على رسالتهم في الحياة الدنيا انها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، وانها رحلة قصيرة مرجعها إلى الله ، وأعظم ما تقدمه العظة الصريحة الواضحة قول لقمان كما حكاه القرآن :

﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾

فلو وعي الأبناء هذه النصيحة لعاشوا مع الله في أمن نفسي وطمأنينة قلبية .

إن قضية هذا العصر وكل عصر ، هو وجود الظلم ، وافدح أنواع الظلم الذي يبدأ بالشرك أو ينتهي إليه ، لأن النفس الظالمة غرور مغرورة .. قانطة يائسة .. تعبث بها شياطين الانس والجن ، أما النفس المتمسكة بلا إله إلاّ الله .. مطمئنة في طريقها ، صادقة في عدها ، أمينة في أخلاقها ، حيث بذكر الله لا يقترب الرجيم من صاحبها ، ويخاف الشيطان من نار الحريق عندما يجاورها ، وهكذا ينشأ الأبناء أقوياء مع الله ، شرفاء مع الحق ، لا تغرهم زينات الدنيا ، ولا تبهرهم حضارتها المادية ، وبذلك يحملون الأمانة إلى الجيل الصاعد نقية طاهرة .

وهكذا يتفوق المنهج الاسلامي في التربية ، على المناهج البشرية والسياسات التربوية ، وأساس هذا التفوق يقوم على الوسط العدل . وليس الوسط وسطاً حسابياً أو تجريبياً ، وإنما هو وسط

رباني فهو صراط مستقيم وهو الاستقامة والقوامة والقصد والقسط والاقتصاد .. هو الوسط الذي ظهرت من خلاله شخصية المسلم المؤمن عبر التاريخ وكأنها لا تقهر ، فالمؤمن يخافه الأعداء ويأمنه الأصدقاء وهذه الشخصية المزدوجة المظهر ، متوحدة الباطن ومتوازنة ومعتدلة ومستقيمة فمن أين إذن جاءت هذه القوة التي يمتاز بها المسلم المؤمن ؟ ...

لم تتكون شخصية المسلم عفواً أو صدفة وإنما تكونت بعد محاكاة للقدوة الحسنة ، وهي شخصية رسول الله ﷺ بسلوكها وأخلاقها وأقوالها وأفعالها .. والاسلام يربي الانسان على اخلاص العبودية لله وحده . فلا يخاف إلاّ الله ولا يتوسل ولا يشكو إلاّ لله .

مبدأ التربية الاسلامية إذن من نزع الشرك الظاهر والخفي من النفوس ثم تستعد النفس بعد سلب كل شرك من النفس يملأ القلب بدين التوحيد الخالص .. والتوحيد سلب وايجاب ، سلب كل ما عدا الله وايجاب للألوهية المنزهة عن كل شرك ، وتظهر هذه القمة التوحيدية فلا إلٰه إلاّ الله فانه لا يتقاعس عن تأدية حقوق الله من صلاة وزكاة وصيام .. ومادام يعرف حقوق العبودية ، فانه سيأمر بالمعروف كما أمره الله ، وسينهى عن المنكر كما أوصاه تعالى .

٢ ـ اقامة الصلاة :

يؤكد القرآن الكريم على المحافظة على الصلاة وتأديتها في مواعيدها ، ويتوعد الله المقصرين والمهملين والساهين عنها وذلك في آيات معجزات منها قوله تعالى :

﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ .
﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ .

وترجع الأهمية في الصلاة كفريضة اسلامية ، انها تعطي الانسان الأمل في الحياة الدنيا والآخرة ، وانها عملية تذكره للمسلم دائماً بربه ، وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأن الشاب الذي يحافظ على صلاته ، إنما يحافظ على نفسه ، ويربيها في طريق الاستقامة والحق ويبعدها عن الريب والشك والغفلة ، وبذلك يصلح أمره في الدنيا والآخرة ..

وقد يجد بعض المبتدئين صعوبة في تأدية الصلاة ، وفي مغالبة أنفسهم التي تهوى الراحة والتبطل ، واحياناً يترك بعضها كسلا أو بدعوى الانشغال بأمور المعيشة والحياة والتمارض .. وربما يؤديها وهو غافل عنها .. وأحياناً يمر يوم أو يومان دون أن يركع ركعة واحدة فاذا تعود الانسان على الصلاة في مواعيدها ، وربي نفسه على أن صلاته لله الواحد القهار لا شريك له ، لتعودت عليها النفس وأصبحت في كيانها .. وهكذا فان العادات الطيبة والمحمودة تدفع بعيداً أو تطرد العادات السيئة والمذمومة ...

٣ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

لقد أفسدت الفطريات الحديثة والمذاهب الغربية المعاصرة أخلاقيات الشباب ، بما يدعو إليه من الفسوق ، وبما تأمر به من الانفكاك عن عرى الدين والتحلل من الأخلاق ، وتستهدف من ذلك خلق الشباب المستهتر الملحد الكافر المتمرد على كل فضيلة .

والذي لا يبالي بالقيم والاخلاق .

ولقد وجدت هذه المذاهب الباطلة والنظريات المنحرفة هوى في نفوس ضعاف الايمان ومن في قلوبهم مرض فيروجون لأفكارها الفاسدة لتنفث في الناس فساداً وأمراضا ثقالا ..

كيف يتسنى لهؤلاء المربين أن يخرجوا للحياة شبابا صالحاً مادامت مناهج التربية تحرض الفتيان والفتيات على التمرد والعصيان وتغريهم بالتعري والتبرج وعدم الأخلاق ...

كيف يتكون مجتمع نظيف متآلف متعاون ، مادام الشرك بالله عادة لأفراده والأنانية والاثره غايتهم ، والاغارار والتكبر والتحير سلوكهم في الحياة أين ذلك كله من تربية القرآن الكريم ؟

﴿ **ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾

﴿ **فاصفح الصفح الجميل** ﴾

بل إن المعروف قولاً وفعلاً هو الطريق الحق لتربية النفس ، لأنه يعطي الثمار الطيبة للتآخي والتعارف والتعاون بين الناس فاذا ذهب المعروف بينهم ، ذهبت معه القيم والأخلاق والفضائل جميعاً ..

﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى** ﴾

إنها التربية المثلى . تربية القرآن الكريم .. حيث أنها مواكبة لطبيعة الانسان لأن الله سبحانه وتعالى واضع أصولها .. حيث ترتبط العلاقات الأسرية والاجتماعية بوشائج من الخير والمعروف . فتقوى بذلك الأخوة في الله ويترعرع الشباب في ظل مجتمع أمين . وأسرة متماسكة متحابة في الله ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

الفصـــل الثّـاني

التربية النفسية الاسلامية

تشتمل التربية النفسية على التعليم .. وتكوين الملكات الخلقية والعقلية .. للأفراد والشعوب .

والتربية الخلقية ليس لها نصيب وافر من التعليم بمراحله في عصرنا الحديث .. وأما التربية العقلية .. فينصب الاهتمام فيها على الذاكرة بمعني أن تربية العقل تنحصر في الاهتمام بالحفظ وكم المعلومات التي تشحن بذاكرة الطالب في المراحل المختلفة .

والواقع .. أن التربية اللفظية التي تلقن بطريقة المحاكاة والاستظهار والتعالي لا تصلح في الحياة الواقعية .. إذ أن العلم الذي يمس كل شيء دون أن يتعمق فيه هو علم من الواجب تجنبه ... فمن الضروري ارتباط العلم بالتطبيق العلمي في الحياة والمجتمع[1] .

كما أن من الصعب أن نطالب المربين الذين خضعوا أثناء دراستهم في الصغر إلى نفس نظم التربية .. أن يغيروا تلك المناهج بمناهج جديدة ... لأن معني ذلك أن يغيروا مزاجهم العقلي .

فقد تعلموا طرقاً تربوية تقوم على الوصول من المركب إلى

---

(١) راجع كتاب « نحو ثقافة إسلامية للمؤلف » (مطالب الحياة الخلقية في الإسلام ، دار المعارف) .

البسيط (فعند الفيلسوف جان جاك روسو أن يترك الطفل للعيش وفق الطبيعة يتعلم منها ، وهذه النظرية تواكب بعض نظريات علم النفس الحديث في التعلم بطريق الصواب والخطأ) . مع أن سلامة المنهج انتهاج طريقة عملية للوصول من البسيط إلى المركب أو البدء من الأيسر إلى الأعسر[١] . والرؤية الطيبة التي تخيرها الأمام الغزالي لنفسه ووجدها نافعة لتربية نفسه وتقييم معارفه .. وتثبيت طريقه في الحياة والمجتمع .. تبدأ من المحسوسات .. وهي الأيسر والأسهل .. لما لها من ارتباطات بالجزئيات والمشخصات[٢] .

ثم انه شك في هذه المحسوسات . وبين أنها لا تؤدي إلى المعرفة السليمة ... ويقول من أين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر وبه ينظر الانسان إلى الكوكب فيراه صغيراً في مقدار الدينار . ثم إن الاثباتات العلمية والهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار . وهكذا يكذب حاكم الحس . ثم يتشكك أيضاً حاكم الحس في حاكم العقل فيقول : إن ثقتك بي كانت كاملة حتى جاء العقل فكذبني .. وربما هناك حاكم وراء العقل يكذبه أيضاً ... فلماذا تصدق العقل وتكذبني ؟

ثم ينتهي آخر الأمر إلى التشكك في حاكمي العقل والحس جميعاً ، إلى أن يصل إلى الأمن واليقين .. وليس ذلك بأدلة حسية وعقلية ، أو بطريق الاستنباط والاستدلال .. ولكن عن طريق الايمان ، وهو نور يقذفه الله في القلب وعلامته أن الدنيا هي

---

(١) روح التربية ـ جوستاف لوبون تعليق د. طه حسين ص/١٠٧
(٢) المنقذ من الضلال ـ ابو حامد الغزالي ص/١ ـ ٧

دار الغرور .. وأن الآخرة هي دار الخلود .

وقد بدأ الامام الغزالي بتربية نفسه بالأيسر .. ثم بالأشق والأعسر أى من البسيط إلى المركب .. ومن الأسهل إلى الأصعب .. وهذا هو منهج التربية الأقوم .

وإننا نؤمن أن التربية هي الوسيلة التي يملكها الانسان لتحقيق التطور الاجتماعي وتثبيت المثل والقيم الأخلاقية .. ولكي يتحقق ذلك فلا بد من تحويل ما هو ظاهر إلى ما هو باطن .. أو بمعني آخر من تحويل المظاهر الخارجية الصحيحة إلى عقيدة إيمانية .. وذلك بتحلية النفس بالأوصاف المحمودة ، وتخليتها من الأوصاف المذمومة . ولا شك أنه بدون التحلي بالايمان وما يستتبعه من قيم عليا يؤدي إلى التفكك والانحلال في وحدة الأمة وافرادها .

وفي تصورنا أن تلقين مباديء الأخلاق ، وغرس القيم ، إنما يتطلب تجنب الشر والاقبال على الخير ، وذلك لا يتأتي إلا بمخالفة النفس بالرياضات ، والبعد عن الشهوات وذلك عن طريق التأديب والترويض . وتحقيق الخير بالتمثيل بالقدوة الحسنة والممارسة الواقعية تدل على أن الخير أفضل من الشر لأن العلم فضيلة والجهل رذيلة .

ولا شك أن التربية النفسية تعمل على تكوين الرجال والتحلي بمكارم الأخلاق والفضائل العليا .. كحب الخير .. والايثار .. والاحسان .. والقوة .. والمحبة .. إنما هي ثمار للبيئة الحسنة .. ونتاج مكارم الأخلاق عند الجماعة والأفراد .

علينا إذن لكي ندرس الأخلاق دراسة سليمة .. صالحة للحياة

العملية ، أن نربطها بالعلاقات الانسانية ، كما علينا أن نربطها بعلاقة الانسان بربه ، فليست الأخلاق مجرد برنامج دراسي يعتمد فيه على التلقين والمواعظ الجامدة والموضوعات المكررة دون أن يكون لها أي نفع في الحياة العملية والعامة .. وإنما التربية تقوم على الارتباط بالواقع .

علينا أن نغرس حب التأمل في طالبي المعرفة ليستخلصوا الحقائق المجردة ويتجنبونها في حياتهم وواقعهم ، بل وعقيدتهم الدينية .. فالأساس في إيجاد تربية ليس باصلاح البرامج أو تغييرها أو تعقيدها .. وإنما باختيار المنهج السليم الذي يجب أن يكون نقطة ينطلق منها البناء التربوي محققاً غاية .. يسعى لتحقيقها في عملية تربية الأفراد والجماعات .

والمنهج المقترح يستقي مصادره من القرآن الكريم .. وهو السراج الأعظم متوخين في تطبيقه ما انتهجه الرسول الكريم . ﷺ سائرين على هدى الأئمة الذين اتبعوا تعاليمه ، وهم القدوة الحسنة التي تعاوننا على تربية أمتنا تربية صالحة في زمان ومكان ..

وتعتبر تربية الانسان في الاسلام غاية من الغايات العظمى تستهدف العلم ومكارم الأخلاق .. فالرسول ﷺ يقول :

« **أدبني ربي فأحسن تأديبي** » (متواتر) .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » (متواتر) .

وخروج الانسان متكاملاً ، واعياً .. عارفاً بربه .. سليماً في معاملته مع اخوانه ، غاية للتربية الاسلامية ، ولكي تتحقق هذه

التربية ، يتوجب أن ننطلق من محركين أساسيين .. محرك ترغيب .. ومحرك ترهيب فالنفس تنزع إلى الهوى والشهوة بما جلبت عليه من صفات مذمومة ..

لذلك وجب تحريك محرك الترهيب .. للقضاء على هذه الآفات أولاً بأول .. كما تقوم التربية الاسلامية على محرك الترغيب فيما يتعلق بالأفعال المحمودة .. حتي يتجلى بها باطن الانسان .. فتصبح هذه الأفعال هدفاً .. وغاية .. وسلوكاً ..

ولكي يتم تطبيق ذلك عملياً .. يتوجب تحلية النفس بالأوصاف المحمودة ... وتخليتها من الأوصاف المذمومة . والمنطق الذي تنطلق منه مناهج التربية .. يقوم على ركيزة مستقاة من القرآن الكريم .. وهي أن الانسان فطر على نسيان الحق .. فاذا لم يذكر به بصفة مستمرة انحرف عن جادة الصواب .. وركن إلى الخمول والبلادة .. فيتلقفه الشيطان .. ويوسوس له .. ويحسن له باطل عمله .. وبذلك تميل النفس إلى طبيعتها .. فتنحرف إلى الأهواء والأماني الكاذبة .. وتندفع إلى الغفلة والضياع (١) .

ومن هنا كانت أهمية الرياضة النفسية لتقوية العزيمة .. والعزيمة باب الصحة النفسية إذ أن أبا البشر آدم ــ عليه السلام ــ نسي ولم يستطع الصمود أمام غواية الشيطان تصديقاً لقوله تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾

(طه : ١١٥)

---

(١) تنبيه الغافلين ــ الامام السمرقندي ص/١٠٥ وما بعدها .

فالنسيان إذن آفة مفطور عليها الانسان .. وعليه مغالبته بالعلم والرياضة النفسية . ومن الناحية العملية .. يجب أن تبدأ التربية النفسية بالاقتداء بالقدوة الحسنة ممثلة في الأنبياء والصالحين لقوله تعالى :

﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ (الأحقاف : ٣٥)

فالعزم يحتاج إلى صبر وكظم للغيظ .. كما أنه لتحقيق التربية السليمة .. يجب استخدام وسائل الترغيب .. والترهيب .. كما يجب التذكير حتي لا يتسني العبد .. لأن النسيان غفلة .. وليد عن العلم والحق والصدق .. وذلك وارد في قوله تعالى :

﴿ سنقرئك فلا تنسي ﴾ (الأعلى : ٦) كما أن النسيان فطرة في الانسان فهو ينسي ما يذكر به .. فكيف لا ينسي ما لا يذكر به لقوله تعالى :

﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسي ﴾

(طه : ١٢٦)

تذكر الحق إذن يستهدف به عدم الغفلة .. والعلم بما هو مطلوب عمله والصالح للتطبيق العملي ..

ولقد أراد سيدنا موسي ــ عليه السلام ــ من الخضر .. وهو عبد من عباد الله الصالحين أتاه الله علما خصه به .. أراد سيدنا موسي .. أن يتعلم هذا العلم ويربي نفسه على الصبر .. وكظم الغيظ .. واحتمال المكايدة للوصول إلى العلم الذاتي لكنه لم يستطع مع الخضر صبرا .. مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴾
(الكهف : ٧٣)

ويمكن استخلاص هذا المنهج الذاتي في التربية النفسية . من قصة موسي والخضر عليهما السلام ، فالعلاقة بين أستاذ وتلميذ .. والأستاذ عبد خصه الله بعلم .. والتلميذ نبي حظي بما لم يحظ به أحد في عصره .. فهو يتواضع لأستاذه العبد الصالح ، والعبد الصالح يدين صعوبة الدرس فيقول له ، إنك لن تستطيع الصبر على ما أريد أن اعلمك عنه يحتاج إلى كظم للغيظ والرياضة النفسية .. غير ما سبق أن علمته وخبرته .. وما أوحي إليك . ورد عليه النبي الكريم لتلميذ متواضع أخطأ في الدرس .. فيقول له :

« لا تؤاخذني على نسيان مواعظك وارشاداتك ووصاياك .. ولا تكلفني مشقة تحصيل هذا العلم .. والأخذ بما كنت أجهله من حقائق وجودية .. فلا تجعل الأمر بالنسبة لي شاقا عسيراً »[1]

إذن فالتربية تحتاج إلى علم .. والعلم يحتاج إلى تذكر دائم .. ومكايدة ومعناه ومجاهدة .. حتي يصير سلوكاً .. وأخلاقاً .. وأدباً كما في قول عز من قائل :

﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾
(الاسراء : ١٢)

والعلم المقصود هنا ليس علماً نظرياً فحسب ولا علماً عملياً فقط .. إنما علم جامع للنظر والعمل .. صالح للتطبيق في الحاضر

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ص/٤٣٧ . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية . لجنة القرآن والسنة . الطبعة الثانية . سنة ١٩٧٢م .

والمستقبل . إلاّ أن أئمة الاسلام ينظرون إلى الجزء الخاص بالعلم النظري على أنه سابق للعمل . بمعني أن التربية الصحيحة تقتضي البدء بالعلم النظري .. ثم تطبيق هذا العلم في مختلف مجالات الحياة .

وقد سمى بعض أئمة الاسلام[1] هذا العلم .. بعلم المعاملة .. وقسموه إلى أقسام ثلاثة :

١ ــ اعتقاد .. أو تفكر أو نظر .

٢ ــ تطبيق .. أو سلوك عملي أو معاملات ــ أى تنفيذ وتطبيق .

٣ ــ ترك .. استبعاد وهجر .

وللتربية الاسلامية جانب آخر يختص بتربية القلوب .. وهي تربية رياضية أو رياضة نفسية عملية .. تهتم بالنيات والخواطر .. فتدفع بعيداً .. الخواطر والوساوس والنيات السيئة .. كالرياء .. والغرور .. والحسد والكبر والتعجب ... وغير ذلك من الآفات .

ثم تدفع إليها مكارم الأخلاق ... ممثلة في الايثار والصدق .. والعدل والاحسان .. والتواضع وتنمية النفس بالخواطر المحمودة وفي ذلك يقول الرسول ﷺ :

« ثلاث مهلكات : شح مطاع .. وهوى متبع .. واعجاب المرء بنفسه »[2] .

على المربي إذن أن يعاون تلميذه على التخلص من هذه النقائض والآفات الباطنة بتطبيق منهج واع ، وقواعد عملية .. تنطلق من

---

(١) من أمثال ابوحامد الغزالي .

(٢) احياء علوم الدين ــ ابوحامد الغزالي جـ/١ ص/٧٨

مفهوم اسلامي مؤداه :

« مَنْ لا يعرف الشر يقع فيه »

كذلك يتوجب تعلم الانسان بعض العلوم وتجنب أخرى .. فتعلم الطب لعلاج الأجسام أو تعلم الحساب من أجل المعاملات وبالمثل في الصناعات والحرف .. وتجنب العلوم مثل تعلم السحر ... والشعوذة ... التي ليس ورائها فائدة على الاطلاق .

وليتم ذلك يقينا لا بد من مربي ومريد تكون بينهما رابطة قوية أساسها الثقة والأدب حتي تتحقق التربية السليمة .

آداب التربية :

الرابطة بين المربي وطالب العلم لها آداب وشروط .. منها :

١ ـ النصيحة الخالصة التي لا ترتبط بمنفعة أو مصلحة ..

٢ ـ أن يتحقق في المربي الحلم والشفقة والرحمة بمن يتولى تربيتهم .

٣ ـ أن يترفق بهم .. ويقوى عزائمهم على المجاهدة والعمل على مخالفة العادات والطبائع الرذيلة ..

٤ ـ أن يعتبر المربي بمثابة الوالد الحكيم .. الشفوق .. اللبيب .

٥ ـ أن يأخذ المربي من يربيهم بالأسهل .. وإذا ما قوى العزيمة يأمرهم بالأشد .

٦ ـ أن يعوده على العزم .. والمجاهدة .. والصدق .

٧ ـ الا يهون عليه أمره عندما يقع في المخالفات .. ولا يترفق به .. حتي لا يقع في الحماقات .

٨ ـ أن يحسن تربيته وتأديبه .. ولا ينتظر من ذلك عوضاً .

٩ ـ إذا وجد فيه خللاً ، فعليه أن يحفظ سره ، لأنه أمانة عنده .

١٠ ـ أن يكون ملجأ المريد عند الحاجة .. ومرشده .. وموجهة .. وأن يعظه في السر .

١١ ـ ان يصغر له أحواله .. وأعماله .. لأن التعجب يفسد المجاهدة ويذكر المريدين بالمفاسد ويحذرهم منها ولا يعين أحدهم منهم .

وقد ركزت التربية الاسلامية على الوفاء للمربي .. فالابن يجب أن يبر بوالديه برا تاماً .. ولا يضجر من طلباتهما ولا يزجرهما .. رحيماً بهما ، وذلك من حقهما وفضلهما عليه ..

ولكن يجدر بنا أن نتساءل هنا .. ايجوز اتباع المربي المنحرف وتأتي الاجابة على هذا التساؤل في الآية الكريمة عن لسان فرعون :

﴿قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين﴾

(الشعراء : ١٨)

كان فرعون يشرك بالله .. ويؤله نفسه .. ويقتل الذكور من الموليد كذلك أبي موسي ـ عليه السلام ـ أن تسمى تربية فرعون له نعمة عليه لأن سبب التربية الاضطرار .

والتربية الصحيحة .. تعلم الجلد ، والمثابرة ، والصبر والايثار والاحسان ، والرحمة .

الاسلام ينظر إذن إلى التربية نظرة واقعية ... عميقة وواعية تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان .. تتعدى حدود الواقع ..بل تتجاوز حدود الدنيا لتوصيلها بالحياة الباقية ..

فالتربية الاسلامية شاملة .. جامعة .. تعالج الانسان ككل .. كوحدة .. مع الاهتمام بالفروق الفردية والجسية والمميزات العقلية

والخلقية .

فان الله تعالى يرى أن الانسان الذي يربي تربية كريمة .. يخرج نسلاً كريماً .. لقوله تعالى :

﴿ والبلد الطيب يخرج نباتاً باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكداً ﴾ (الأعراف : ٥٨)

خصائص الوسط العدل

للوسط العدل في النظام الاسلامي خصائص ينفرد بها ، لا نجد لها نظيراً في النظم الأخرى ويمكن تحديد هذه الخصائص في :

١ ـ الاختيار الأمثل (الأفضل) .
٢ ـ الوسط سنة كونية .
٣ ـ تحقيق مصلحة الفرد والجماعة .
٤ ـ التكامل .

أولاً : الاختيار الأمثل (الأفضل) :

إن الوسطية الاسلامية تقوم على الاختيار الأفضل ، فليس الوسط عبارة عن توسط بين متنافرين أو متناقضين أو متقابلين فحسب ، لأن ذلك معناه وسط حسابي أو تقريري ، ومن ثم سيتصف بالجمود بحيث يتعلق بكل موضوع أو ينطبق على كل حالة من الحالات بنفس النظام وكأنه قاعدة عامة لا يجوز مخالفتها . ونضرب لذلك مثلاً برجل أيراده الشهري مائة جنيه فاذا قلنا أن الاختيار الأفضل في الانفاق هو عبارة عن ثمانين جنيهاً شهرياً فان ذلك يعتبر وسطاً عدلاً بالنسبة لهذا الشخص فحسب ، فاذا كان هناك رجل آخر ايراده الشهري هو عبارة عن ثمانين جنيهاً مثلاً

وينفقها برمتها ، فان ذلك يخرج عن الوسط العدل .

وهناك رجل ثالث ايراده أكثر من مائتين جنيه ينفق منها مبلغ لا يزيد عن ثمانين جنيها ، فان ذلك لا يعد وسطاً عدلاً أيضاً لأن الثاني الذي أنفق كل ايراده ولم يعمل حسابا لظروف طارئة قد أسرف وبذلك لا يعد تصرفه اختيارا أمثل ، وأما الثالث فلقد شح وقتر على نفسه ، فلم يكن اختياره بالاختيار الأمثل .

فليس الوسط الذي يصلح للطرف الأول هو بعينه الذي يصلح للثاني أو الثالث فالوسط إذن موازنة واعتدال في الانفاق بحسب الظروف المتاحة أو الدخل فهو يتناسب تناسباً طردياً أو عكسياً مع زيادة الدخل ونقصه ، فالاختيار الأمثل معناه التوازن في الأمور كلها دون افراط أو تفريط ، ودون زيادة أو نقصان .

وتتدخل عوامل متعددة في تقدير الاختيار الأمثل منها فكر الانسان ومنهجه وسلوكه في الحياة ، فكلما كان الانسان معتدلاً في تصرفاته ، كلما كان ذلك دليلاً على وجود منهج مستقيم يسير عليه يقول عز من قائل :

﴿ قال أوسطهم ﴾

واوسطهم هنا ليس المتوسط بين الكبير والصغير إنما هو أفضلهم رأياً وأكملهم عقلاً ، وأحسنهم خلقاً ، أى أنه الذي لا يغلو في الأمور ولا يسرف فيها ولا يزيد عن حد الاعتدال ، كما أنه ليس بالشحيح ولا المقل ، ولا البخيل ، إنما هو الذي يزن الأمور بميزان عدل فيتبع الأفضل منها ، فلا تغلو عليه الشهوة والأنانية . ولا الغضب الجامح ولا الهوى ، إنما هو يسير على منهج رباني فطري

يجعل ظاهره كباطنه ويتوافق عقله مع جوارحه ، وقلبه ونفسه جميعاً .

ثانياً : الوسط سنة كونية :

من خصائص الوسط العدل[1] انه لم يبين القرآن الكريم قواعده ورسومه ونصوصه الا أنه يفهم ضمناً من الكتاب والسنة . وهناك اشارات عديدة إلى أن الوسطية الاسلامية هي سنة مقررة في الحياة الدنيوية ، فكل شيء في الكون يسير على هذه السنة . وكذلك الأمر بالنسبة لمنهج الانسان الحياتي ، إلاّ أن الانسان ربما لا يتبين ذلك حيث إن له إرادة غالباً ما تجعله يخرج عن الوسط العدل والخير الفاضل فيتبع الهوى أو يوافق الغواية ، أو يقترف الرذائل والموبقات ، الأمر الذي يجعله غافلاً ناسياً عن حقيقة رسالته في هذه الحياة ومن ثم لا يستطيع أن يتنبه إلى أن مصلحته إنما في اتباع الوسط العدل في الفكر والسلوك والحياة . وتتمثل هذه السنة على سبيل المثال في أن الشمس إذا انحرفت عن مسارها ولو درجة واحدة لتغير شكل الحياة على الأرض فلو انخفضت عن مسارها درجة لاحترق الناس من شدة الحرارة ولو ارتفعت درجة عن مسارها لمات الناس من الزمهرير ، فالشمس تسير في وسط عدل تلتزم به ، وهذه سنة الله التي أودعها في العالم .

والأمر كذلك بالنسبة للكواكب السيارة والافلاك والنجوم

---

(١) للمزيد انظر : « نحو منهج علمي إسلامي » للمؤلف ، دار المعارف مصر سنة ١٩٧٨م .

فكلها تسير في وسط عدل لا تنحرف عنه قيد أنملة ، وبالمثل الأرض عليها إلاّ الانسان الذي وهبه الله العقل والارادة ونصحه باتباع حد الاعتدال والتوازن في نفسه وجسمه وعقله وعلاقاته بغيره إلاّ أنه بغي وطغى .

فالقليل من الناس من يتبع سنة الله لعباده والكثير منهم من يغفل وييئس فيسرف في طلب اللذات ويوافق الأهواء ، فيظلم نفسه ويبتعد عن السنة الالهية التي سنها الله لعباده ، ولقد أقام الله الحدود كردع للنفس التي تبتعد عن الوسط العدل والخير الفاضل والاختيار الأمثل ، فاذا ما تأملنا هذه الحدود لوجدناها عقابا على التمادي في خرق السنة الالهية .

فلكي يكون الانسان صحيحاً سليماً معافى جسداً وروحاً يتوجب عليه أن يتبع أمر الله الذي هو الفطرة السليمة المواكبة للوسطية ، فاذا خرج عنها فمعني ذلك أنه قد أحدث فسادا أو افسادا في نفسه لغيره ، أو في الأرض فاذا قتل انسانا بغير حق أفسد في الأرض ومن ثم يستحق اقامة حد القتل عليه وذلك للرجوع إلى التوازن والاعتدال ، فاذا قتل بدون ردع أو عقاب انتشر الفساد والافساد وبغي القوي على الضعيف وأصبحت الحياة فوضي ليس فيها عدل للنفس أو الجسم أو المجتمع . وكذلك الأمر بالنسبة للسارق فهو اسرف عندما اغتصب مال غيره بدون حق ، وخرج عن الاعتدال إلى الاسراف والظلم لغيره فوجب اقامة الحد عليه والاقتصاص منه وذلك لتحقيق الأمن والتوازن في العلاقات الاجتماعية حتي لا تنتشر الفوضي ويسود الفساد ، والأمر كذلك

بالنسبة للزنا فالذي يقدم عليه إنما هو قد أسرف سواء كان محصناً أو غير محصن ، وأخذ ما ليس حقه واغتصب ما هو لغيره ، فيجب أن يقتص منه ليتوازن الأمر وحتي لا تنتشر الرذيلة والفوضي في الانسان وبذلك يتحقق الاعتدال والعدل ، إذن فان في إقامة الحدود تحقيق للوسطية الاسلامية التي تستهدف الاصلاح والصلاح للنفس والجسم والمجتمع جميعاً .

ثـالثاً : تحقيق مصلحة الفرد والجماعة :

إن من خصائص الوسطية الاسلامية تحقيق مصلحة الفرد والجماعة فلا يطغى الفرد على الجماعة ، ولا تطغى الجماعة على الفرد ، فالمتجبر إنما يوافق شهواته ويلبي مطالبه في السيطرة والتحكم على الغير ولذلك فانه يخرج عن حد الاعتدال ويظلم غيره بهوى نفسه ويعبد نفسه لأنه يظن كذبا وافتراء سواء تلفظ بذلك أو لم يتلفظ أنه المسيطر القوي القادر على البطش دون حساب أو عقاب .

والمتجبر إنما هو مسرف في أمر نفسه مشح في أمر غيره إذ أنه يفرط في استخدام قواته التي أودعها الله فيه فيظلم الناس والعباد . وهذا معناه الخروج عن الوسطية الاسلامية ، والبعد عن الاعتدال للنفس والجسم جميعاً ومادام التجبر يعتبر رذيلة إذ أنه خروج عن مصلحة الفرد لأن مصلحته إنما تكون في اعتداله فهو إذا أفرط في الأمر لم يكن ذلك دليلاً على تحقيق سعادته أو لذاته إنما ذلك دليل على الشقاوة والتعاسة في الدنيا والآخرة ، إن استخدام المتجبر لقواه

البدنية في ظلم الآخرين أو استعبادهم أو ذلهم ليس ذلك بالاختيار الأمثل أو الخير الفاضل له ، ذلك لأنه سينشر الرعب بين الجماعة ويضربها فينتشر الفزع والرعب أو الفساد والافساد ويضيع الحق بين الناس ويكثر الرياء والنفاق لاكتساب صداقة الطاغية المتجبر ، فيتلهى الناس بالأمن الزائف عندما يتقربون إلى المتجبر بزعم أنه يتحقق لهم بذلك النجاة .

ويقف فريق آخر في موقف الضعف ، ويحرم من العدل فينتشر الجور والظلم ويعتدي القوي على الضعيف ، وتزداد الشرور ويمتلىء المجتمع بالفساد والافساد بذلك فانه لكي يتحقق العدل والأمن والنظام يجب أن تقتلع رؤوس الطغيان الذي هو اسراف وافراط وضياع للحقوق للفرد والمجتمع جميعاً .

فالاعتدال معناه عدم التجبر كما أن معناه أيضاً عدم الجبن والخنوع فالجبن تضيع للحقوق والخنوع مذلة ونفاق ورياء يميت الحق من القلب واللسان والجبن والتجبر كلاهما خروج عن حد الاعتدال والتوازن والاستقامة فاذا كان التجبر افراط فان في الجبن تفريط وإذا كان في التجبر والطغيان اسراف في القوة المادية فان في الجبن والخنوع نقص في هذه القوة ولا علاج لذلك الا بالرجوع إلى حد الاعتدال الذي تستقيم به مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع .

رابعاً : التكامل :

ليس الوسط العدل ينفرد بالجسم دون الروح أو بالروح دون الجسم لأن النفس الانسانية مخلوقة من مادة نفخ فيها الله من روحه

فاذن النفس الانسانية هي مركب من اعادة والروح ولا يمكن أن تتكامل النفس الانسانية إلاّ إذا تكاملت الروح مع الجسم بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، فان الانسان الذي تكاملت نفسه هو ذلك الذي يعطي لجسمه حقه فلا يسرف في الغذاء والملبس كما أنه ليس ذلك الذي يمنع عن جسمه حقه في الغذاء والشراب والأمر كذلك بالنسبة للروح ، فليس المقبل على لذاته وشهواته وأهوائه يعطي لروحه حقها إنما هو يعطي لجسمه دون روحه وكذلك الأمر بالنسبة للذي يهتم بتغذية روحه بالعبادة ويظن أنه بتعذيب جسمه إنما يتقرب إلى الله وهذا الجسم إنما هو أمانة عنده يجب أن يحافظ عليه وأن يعطيه حقه فاذا منع هذا الحق بدعوة أنه يريد أن تتشفف روحه فانه قد ظلم نفسه جميعاً .

إذن لكي يتكامل الانسان يجب أن يتوازن مع جسمه وروحه حتي يستطيع أن يصل إلى الخير الفاضل الذي يحقق التوازن والعدل والقسط وبدون ذلك يختل ، نظام الانسان فاما أن يعطب الجسم باهماله له ومنعه من الغذاء الذي أباحه الله له أو تعطب النفس عندما يهملها ولا يعطي روحه حقها من العبادة والرياضة .

فالتكامل بين الجسم والروح أساس للحياة النفسية السوية فاذا تنافرت الناحية الروحية مع الناحية الجسدية فسدت النفس وضلت وأضلت .

الفن الاسلامي والتربية النفسية

إن الدعامة الكبرى للتربية النفسية هي الثقة بالله ، أو هي

الأمل في الله والرجاء فيه تعالى ، وهذا الرجاء هو الباعث الحقيقي على السعي والاتقان والاجتهاد في الأعمال والأفعال .

فلا شك أن الذي يأمل في الله ، ويسعى بالله ، عليه أن يعمل ويخلص في عمله ، والا كان الرجاء مجرد أماني وأحلام واوهام لا طائل تحتها .

الخــير الفاضل في الفـن :

ونحن نتساءل .. كيف يتسنى تطبيق الخير الفاضل في مجالات النشاط الفني ؟ ..

إنه من المعروف طبياً أن الجسم لا يعالج إلا باضداد الأشياء . كأن يكون به حرارة فيعالج بالبرودة .. كذلك حال النفس الانسانية .. إنها لا تعالج إلا باضدادها .. أي بمخالفة أهوائها وحظوظها .. وحاجتها التي لا تشبع .

فاذا كان نزوع النفس مثلا إلى الغرور .. كان العلاج الناجع لها هو التواضع .. وإذا مالت النفس إلى الهوى .. كان علاجها الاستقامة ، وإذا ما طلبت التسلط والتجبر .. كان شفاؤها بالتزهد في أمور الدنيا الفانية .. وإذا انحرفت إلى الانانية .. عولجت بالايثار .. وهكذا يستمر علاج النفس باضدادها حتي تتخلص من الآفات والنقائص ، وينصلح حالها ، وترجع عن افراطها وتفريطها ..

التأليف الفني :

ليست الاضداد معالجة خيالية لأمراض النفس ، إنما هي

طريق عملي يمكن به تغذية النشاط الفني في مختلف صوره ، بمعني أن نعرض لشخصية بها آفة من الآفات .. ثم نسرد الحوادث لنبين أخيراً أن الطريق الوحيد الموصل إلى سعادة الانسان .. إنما يكمن في مخالفة أهواء النفس وعلاج أمراضها باضدادها ..

والصورة الفنية التي تعرض كفيلم سينمائي .. أو قصة روائية .. يمكن أن تستعير هذا المفهوم الاسلامي ، لتضعها كعمد أساسية في تسلسل الأحداث .. مع إضافة وسائل التشويق اللازمة للسامع أو القارىء أو المشاهد .

وإذا كان على مريض الجسم معاناة مرارة الدواء .. وتحمل مبضع الجراح ، والصبر على المشتهيات ليستقيم حال بدنه .. ويشفي من علله .. فكذلك الحال بالنسبة لنموذج الشخصية المريضة ، المعروفة كقصة سينمائية وروائية .. فان مغالبة النفس ومنازعة الشيطان .. وذلك بكثرة المجاهدات والرياضة النفسية القائمة على الصبر على الأذى .. والاعتداء .. والمكابدات التي يعنيها الفرد للتخلص من الآفات والحظوظ النفسية وغواية الشيطان .. ثم ينتهي الأمر بالسكينة .. وبها ينصلح حاله .. ويشفي من استقامة ..

وعلم النفس الاسلامي ينظر إلى المرض النفسي نظرة الفاحص المدقق .. فيرى أن تلك الأمراض ثمرة فجة .. ونتاج طبيعي للجهل ونقص التربية ..

ومعني ذلك أن الصورة الشخصية الغير أخلاقية التي يعرضها المؤلف ، يجب أن تبصر بالطريق المستقيم ، عن طريق بعض الابتلائات أو الامتحانات أو الاختبارات التي يخوضها .. فتتشفف

نفسه .. ويقوى ميله إلى الحق والخير .. بعد أن سار شوطاً في طريق الغواية والشر والرذيلة .

كما يجب أن يصور لنا المؤلف أن شخصية المنافق .. أو الفاسق أو المرائي .. لا بد أن تنتهي نهاية سيئة في آخر الأمر ، و إلى طريق مسدود .. فيه يفكر صاحبها في التوبة .. ويجد أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه .. ويجد أن كل النجاحات الزائفة إنتهت بفشل .. دائم .. وأن النجاح الذي عاشته هذه الشخصية .. إنما هو اختبار وفتنة .. وليس الا نجاح متوهم ..

كما يجب أن يصور لنا المؤلف أو الفنان .. أن هناك اختلافا بين مريض الجسم ومريض النفس .. ذلك لأن مريض الجسم إذا تراكمت عليه العلل والأوجاع ، إنتهى به المرض آخر الأمر إلى الموت ..

أما الشخصية صاحبة الآفات النفسية . فانه إذا تعذر علاجها ، ولم يصلح حالها .. فان صاحبها لا يتخلص من آفاته وأمراضه بالموت إذ أن أمراض النفس تدوم في الدنيا والآخرة ..

وهذه المعالجات الفنية للقصص بهذه الصورة ، تنبع من الوسط العدل الاسلامي وهو صالح للتطبيق فعلى جميع الأنشطة الاسلامية الانسانية .. بل وفي كل زمان ومكان .. لأنه خير فاضل .. وأقرب إلى الاعتدال والقصيد .. وأبعد عن الغلو ..

فاذا تصدى الفن إلى تطبيق قاعدة الخير الفاضل . أعطى بذلك العمل نموذجاً للحكيم الذي يتوجب على المشاهد أو السامع أو القارىء ، أن يجعله قدوة له في حياته الواقعية .. ونبراسا

يستضيء به في سلوكه اليومي .. وهو يختلف بذلك عن شخصية «السوبرمان» الخيالية ، والتي تشجع على العدوان وترمي إلى سفك الدماء ، وتخلق في النفس جوا مثيراً للتناقضات ..

أما شخصية الحكيم .. فهي شخصية مستقيمة ، ومتوازنة ، تخالف دوافع النفس الغريزية ، وتتحكم في القوى الغضبية والشهوية عن طريق محاكاة القوى الربانية ، فترى أن الشجاعة ليست في غلبة الخصوم .. وإنما الشجاعة في كظم الغيظ مع القدرة على الاعتداء ..

وليس هذا الوسط الذي يطبقه الحكيم .. وسطا حسابيا .. أو مادياً .. إنما هو عدل مأخوذ عن العدل الالٰهي ، ومعرفة مستقاة من العلم الرباني ..

شخصية الحكيم :

شخصية الحكيم إذن لا تتكلف الأعمال والأفعال والأحداث . وإنما تسيرها أنوار الله .. وأوامر الله .. وحكم الله ..

والحكيم هنا يمكن أن يكون مجاهداً .. أو اماما .. أو رجل علم .. يتقدم بمقتضي الفطرة السليمة .. ولا يتكلف .. ولا يتصنع الأفعال .. ولا يغش ولا يخدع للوصول إلى منافع أو لذات .. إنما هو شخصية تمتاز بالسكينة .. والطمأنينة .. فهو صاحب خير كثير .. كما ورد في قوله تعالى :

﴿ يؤتي الحكمة من يشآء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾

فنحن نريد باختيار شخصية الحكيم .. أن نستخدم الفن كوسيلة لتحقيق الغايات النبيلة ، لنرفع من قيمة الانسان إلى أعلى الدرجات ، بدلاً من أن نهبط به إلى أسفل السافلين ، فنتجنب محكاة الفنون الرخيصة ، ونستبعد الأعمال غير الهادفة .. ونرفض استيراد العروض الفنية غير الأخلاقية .. لنضع مكانها فناً متسامياً .. عريقاً .. نتشبه فيه ببديع خلق الله .. ونقتدي فيه بأمر الله .. ونتتبع خطى الرسول الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأئمة الصالحين ..

العلم والفن :

ولا نشك في أنه إذا طبق الانسان الوسط العدل على نفسه ونصح به غيره ، فان ذلك يعد احياء للتراث الاسلامي ، والفكر الاسلامي .. بل يعد بمثابة حد قاطع لغرور الصناعات الفنية التي تعتمد على الاثارة ... وايقاظ الغرائز .. فبالوسط العدل ، يمكن الوصول إلى أعلى درجات التقدم ، في الفنون والآداب .. وأن هذا الوسط مؤسس على العلم لقوله تعالى :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلّا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط ﴾

والقسط في الآية الكريمة هو الخير الفاضل ، وهو الوسط العدل الذي يفصل بين الحلال والحرام .. والحق والباطل ، فلا يخلط بين الصدق والكذب .. أو بين العلم الظني والعلم الحق ..

والفنان الأصيل يصور الوقائع ، ويجمل الحياة ، وينقل بيع صنع الله من مخلوقات وألوان وجمادات .. لكنه لا يدعي لنفسه أنه

خالقها .. ولا يفتري على الله كذباً .. إنما يقول إن في هذه الصورة الجميلة آيات من الابداع العبقري .. الذي لا يستطيعه أى إنسان .. مهما أوتي من العلم والمهارة والمواهب أن يأتي بمثلها إنها صورة من بدائع خلق الله ..

والانسان الفنان إنما يحاكي الطبيعة .. ويقلدها .. لكنه لا يخلق جديداً . ولا ينشأ عملاً فنياً من العدم .. إنما الفنان يقلد الطبيعة التي خلقها الله في أحسن تكوين .. وينقلها ـ إلى المتذوق أو المشاهد أو المستمع ـ بحسه المرهف وشفافيته . في أجمل صورة ، وأتم شكل .

القيم الفنية الاسلامية :

كما أشرنا من قبل ، يجب غربلة المفاهيم الفنية ، التي نستوردها من الدول التي سبقتنا في الصناعات والأنشطة الفنية ، وأن نرسم لانفسنا منهاجاً لا نشذ عنه أبداً .. فنقبل ما يتمشي مع مثلنا وأفكارنا .. وعقائدنا .. ونرفض باصرار ما يتنافي مع قيمنا الروحية واخلاقنا الاسلامية ..

وعلى المهتمين بالفنون المختلفة .. أن يتبينوا سلامة الطريق إلى تغذية النفس الانسانية بالخير والفضيلة .. ولن يتم ذلك الا بتعميم المفاهيم .. وغرس مبادىء الأخلاق ، والتبصير بالطرق المختلفة . لعلاج آفات النفس وتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية .. وذلك عن طريق الأمر بالمعروف .. والنهي عن المنكر .. وتنمية الذوق السليم القائم على الصدق .. الذي يساعد على الفهم الرشيد

والحكم السديد على ما يقدم من فنون ..

والسبيل إلى ذلك إنما يكون بالتربية الايمانية الصحيحة .. ولا شك أن وسائل الاعلام ، تستطيع أن تلعب دوراً خطيراً في هذا المجال ، فيمكنها عن طريق غرس العادات الصالحة في نفوس السامعين والقراء والمشاهدين .. وربط عرى المحبة والالفة بين الناس ، وتشجيع روح البذل والعطاء ، ويمكن التمثيل لذلك بالقصص القرآني ، وترجمة حياة الأنبياء والصديقين والصالحين والمجاهدين ..

كما يمكن من ناحية أخرى عرض مثالب النفس ، والطرق التي يوقع بها الشيطان فريسته من بني الانسان .. ثم بيان العلاجات الناجعة لصده وتجنبه .. كما أن على المشتغلين بالأنشطة الدعائية والفنية ، والعمل على تشجيع عرض الفنون الرفيعة .. في إطار خطط مدروسة ، لها أهداف محددة كمناهج عامة ، يصد منها تربية النفوس على حب الخير والحق والجمال ..

وهذا بطبيعة الحال .. يساعد مساعدة إيجابية على التخلص من السلبية .. والقضاء على التوتر والقلق واليأس ، الذي إذا ترك يسبب الانحراف أو يصيب النفس بالتلف والضياع . إذ أن الفراغ النفسي هو الطريق المباشر في عصرنا الحالي للفساد والانحلال ..

تأثير التحليل النفسي على الفن :

والواقع أن الفن الغربي ، الذي يقدم لنا على أنه يعبر عن الحضارة والتقدم الانساني .. يدس السم في فم الانسان المسلم ،

دون أن يدري إذ يعتمد على الوصف والتشخيص الأوربي .. الذي يرى السلوك الانساني الانحرافي هو الطابع المميز للسلوك الانساني ويعتمد على نظريات علم النفس الفرويدي باعتبارها تؤكد على حقيقة من حقائق النفس الانسانية ..

يزعم فرويد وتلامذته أن هناك حتمية نفسية .. وأن جميع الأفراد تسيرهم الشهوات وطلب اللذات التي لا يستطيعون عنها فكاكاً[1] .. كما أن الرجل الطيب ـ عندما يظهر في القصص السينمائية .. والبرامج التلفزيونية ـ إنما هو شخص مريض نفسياً .. وإنه بركان يغلي من الداخل .. فاذا صادف أي ظروف غير موافقة لأهوائه ، انقلب وحشا مفترساً يهاجم بلا رحمة ..

كل ذلك يدفعنا إلى القول بأنَّ الفن بهذه الصورة ، يواكب مدارس التحليل النفسي الالحادية ، التي تدين بوجودها إلى علم النفس الحيواني ، وشتان ما بين الانسان والحيوان[2] ..

الفنان المـؤمن :

وفي تصورنا أن مهمة الفنان أو الأديب ، لها دور أساسي في الوعي لدى الجمهور .. وغرس المبادىء الأخلاقية .. والمثل العليا في الأفراد .. إذ أنه بمثابة القدوة ..

لذلك يتوجب على الفنان أو الأديب ، أن يكون سائراً في

---

(١) الموجز في التحليل النفسي ، سيجموند فرويد . ترجمة د . سامي محمود .

(٢) للمزيد راجع كتاب « نحو علم نفس إسلامي » للمؤلف . وقد عرضنا فيه لنظريات التحليل النفسي عند سيجموند فرويد وتلامذته ونقدناها نقدا موضوعيا ، ووضعنا بناءً متكاملا للنظرة الإسلامية للنفس البشرية .

طريق الحق والاستقامة .. مخلصاً للأسس التربوية الاسلامية .. يعرف أنه يؤدي رسالة إنسانية لا يشذ عنها أبداً .. فلا يميل إلى منفعة شخصية .. أو شهرة ذاتية سهلة .. لتحقيق نجاح رخيص .. وإنما يستهدف في عمله وجه الله تعالى .. فيتخير الطريق المستقيم ، المؤدي إلى الحكمة العليا ، مؤثراً الفن النظيف الخالي من شوائب الاثارة للشهوات .. وهو في ذلك يعلم .. ويربي ذوق المشاهد أو القارىء أو السامع ، فيمده بالصور المشرقة بدلاً من تركه فريسة للقلق والضياع والتوجس .. كما أن عليه أن يملأ قلبه بالأمن .. والطمأنينة بدلاً من موافقة الأهواء .. وتعرية الناس وكشف أسرارهم وعيوبهم .. أو إبراز الشخصيات الوهمية المنحرفة .. كما نجد ذلك في بعض البرامج الساقطة على أنها تعبير صادق وحقيقي عن شخصية فنية حقيقية ..

فالفنان في تصوره مثله مثل المربي الأخلاقي الفاضل .. ذا تجربة ذوقية يستهدف المثل العليا الجمالية ، عن طريق تغذية النفوس والعقول بالحقائق الوجدانية ..

ومن هنا يمكن أن يؤثر الفنان في الآخرين لاكتساب الفضائل وتجنب الرذائل .. وتعويد الأفراد على المحبة بدل الكراهية .. وعلى البذل بدل الأنانية . والالفة بدل الرفض والتمرد .. وعلى الصبر .. بدل الرعونة والحمق .. والاندفاع والتهور .. وعلى الايمان بدلاً من الشك والريبة[1] .

---

(١) للمزيد في هذه النقطة راجع كتابنا « نحو منهج علمي إسلامي » دار المعارف سنة ١٩٧٨م ص/٢٥٥ نحو منهج فن إسلامي » .

كما يجب التركيز على أن الفنون لا يمكن أن تكون أشكالاً وصوراً ومظاهر خارجية فحسب .. وإنما لا بد أن يكون لها آثارا بعيدة في أعماق الانسان .. تلعب دوراً أساسياً في تغيير سلوكه واتجاهاته ..

لذلك فلكي يتكامل العمل الفني .. لا بد أن يبتعد عن السطحية والرياء والغرور ، والتكبر والاستعلاء والاستهزاء ، والسخرية والألفاظ الساقطة والبذيئة .. وغير ذلك من الآفات والنقائص الغير أخلاقية ..

وعلى الفنان أن يسبر غور الشخصية التي يقدمها للجمهور ، ويصف سلوكها ويجتهد في فهمها وباطناً .. ثم يبدأ في عرض العلاج الناجح في عمله الفني ..

وكما سبق القول ، يكون العلاج عن طريق غرس القوى الايمانية ، وتدعيم الصلة بينه وبين الله .. والتركيز على أن التوبة تغفر الذنوب جميعاً .. وبذلك تنطبع في نفوس المشاهدين أو القارئين صورة الاسلام الحقة .. المؤسسة على المحبة والرحمة والعفو والتسامح ..

الفصل الثالث
خصائص النفس الانسانية ومواقفها

للنفس الانسانية مواقف متعددة ، واوصاف مختلفة ، وخصائص متباينة ، ودرجات عظيمة ، ودركات حقيرة ، فاذا ما خلدت النفس إلى طريق الله ، واتخذت سبيلها إلى مرضاته تعالى نعمت بالأمن والسكينة وما تزال تجاهد في سبيله حتي يسكنها الله مقاماً محموداً[1] ... وليس طريق الله ميسوراً الا للنفس الصابرة المخلصة التي من سماتها كظم الغيظ والصبر على المحن والابتلاءات والشدائد ، تلك النفس التقية النقية الورعة الراضية بما قسم الله لها من رزق في هذه الحياة ، والتي تتصف بالايثار والاحسان...

أما النفس الظالمة فانها توافق الأماني الكاذبة ، وتتابع الغوايات الشيطانية ، وتواكب الأهواء فهي نفس كاذبة كذوب ، إذ مع الغواية سواءاً وشروراً ، ، أما إذا تابت وأصلحت ، فانها تزداد مع الهداية صلاحاً ونوراً . إذ أنه بالتوبة النصوح تسكن النفس عن نزوعها الشهوي وتخلد إلى الأمن والطمأنينة :

ويمكننا أن نحدد هنا المواقف النفسية المختلفة وأوصافها ، حتي

---

(١) ابوطالب المكي ـ قوت القلوب جـ/١ ص/١٧٤ ـ ١٨١ ـ طبع مصطفي الحلبي بمصر سنة ١٩٦١م .

يتبين لنا الطريق الواجب الاتباع والذي يقود إلى شاطىء الأمان والنجاة من مكائد ابليس اللعين ومن الأهواء التي تحجب النفس عن حقيقة الدين وتضع أمامها ستراً يمنعها من رؤية النور والحق المبين ، ويجعلها تعيش في الظلمة المعتمة ، وتكتنفها صنوف من الحيرة والرجفة والفزع والغم والهم والضياع المبين ...

الموقف الأول : النسيان :

والنسيان أول مواقف الهوى[1] ، إذ هو موافقة لمطالب عاجلة تريد اشباعاً ، ومشاكلة للحاجات الشهوية التي تود تحقيقا ، والنسيان تأكيد للضعف الانساني ، ومسايرة للجبلات المودعة في باطن النفس وتأييد لهذا الضعف يقول تعالى : ﴿ **وخلق الانسان ضعيفاً** ﴾ .

وللنسيان درجات أوله ما يكون مصدره الضعف ، وعدم القدرة على مجاهدة النفس والشيطان جميعاً فتخور إرادة الانسان ، ويفتر عزمه ، فيسقط في لحظة الضعف في النسيان ويقع بذلك في الاثم والعدوان .

الا أن النسيان إذا ما تطبعت به النفس الانسانية ، واستسلمت له واسلمت قيادها للهوى الذي هو مصدره الأول[2] ، اتصفت بحال الغفلة ، لطول عهدها في النسيان :

﴿ **فاتخذتموهم سخرياً حتي انسوكم ذكري** ﴾ (المؤمنون : ١١٠)

---

(١) عزت راجح ـ اصول علم النفس ٢٩٣ ، طبعة سنة ١٩٦٩م مصر .
(٢) قوت القلوب : جـ/١ ص/١٨١ ـ ١٨٣ .

وبهذا المعني يكون النسيان نقيضاً للذكر وموافقة للهوى وبعداً عن طريق الله . واستحواذاً من الشيطان الرجيم على النفس :

﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ (المجادلة : ١٩)

ومادامت النفس ناسية لله غير ذاكرة له تعالى . فان الله تعالى ينسي تلك النفس ومن ثم تحيا حياة الضياع والهم والغم والقنوط واليأس :

﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم** ﴾

(الحشر : ١٩)

وإذا تمادت النفس في غوائها بنسيان ذكر الله . أصيبت بالأمراض المختلفة . وتراكمت عليها العلل والأسقام . وتفاقمت تلك الأمراض فأصبحت من خصائصها وصفاتها الظاهرة والباطنة وتلك هي صفات الغافلين .

الموقف الثاني : الغفلة :

اذا اصيبت النفس بهذا الداء (الغفلة) صعب علاجها[١] . لأنها انحرفت عن طريق الحق والاستقامة . ةتطبعت بالأخلاق المرذولة . والصفات السيئة . لذلك يأمرنا تعالى بعدم موافقة الغافلين وتجنب طاعتهم لأنهم مسرفون ومفرطون وأصحاب أهواء :

﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾ (الكهف : ٢٨)

والنفس الغافلة تتدرج في غفلتها حتي تصبح كالبهيمة تقودها

---

(١) احياء علوم لدين _ حـ ٨ ص ١٣٤٢ _ ١٣٦٠ مطابع الشعب .

متطلباتها الحسية وحاجاتها البطنية والجنسية ولا تنظر إلى عواقب الأمور والتي يمكن أن يترتب على فعالها هلاكها وعطبها :

﴿ اولٓئك كالأنعام بل هم أضل اولٓئك هم الغافلون ﴾

(الأعراف : ١٧٩)

الموقف الثالث : النفس الكذوب :

وتتشابك مواقف النفس ، ويعظم بلاؤها وتتداخل الأوصاف المذمومة[١] ، والمواقف الشائنة ، وتبدو وكأنها لا تعقل شيئاً لأنها أوقعت نفسها في الغفلة ، وهنا تبتعد عن الصدق وتظهر أمام الملأ عارية عن الحق فتقترن بالكذب يقول الرسول ﷺ :

« مازال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتي يكتب عند الله كذابا » .

﴿ وكذبوا واتبعوا اهوآءهم وكل أمر مستقر ﴾ (القمر : ٣)

فالكاذب أعلى درجة من الناسي والغافل لأنه يجاهر بالانكار ويظهر أسانيد باطلة ، ومبررات ظالمة وحجج واهية يدافع بها عن نفسه الأمارة معتقداً أن ذلك لصالحه ، وما يعلم أن ما يفعله من موبقات وما يقترفه من آثام ، إنما فيه هلاكه والعذاب الأليم :

﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ (الرحمن : ٤٣)

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ﴾

(الانعام : ١٤٤)

﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ (الزمر : ٣)

---

(١) ابوالحسن البصري ـ ادب الدنيا والدين ص/٤ ـ ١٧ .

والكذب بهذا المعني يقرن بالكفر . إذ أن الكاذب يكذب على نفسه فيجعل الحق باطلاً والباطل حقاً وينشر أكاذيبه ويضل الناس لينحرف بهم عن الطريق المستقيم ، ويروج أضاليله فيسقط في الكفر ولا تقوم له بعد ذلك قائمة .

ويتصل الكذب بالاعتراض والتحدي ، وهذه مرتبة أخرى للكذب تصل فيها النفس الكذوب إلى أعلى درجاتها في الضلال والشرك الأكبر .

الموقف الرابع : الاعتراض والتحدي :

من خصائص النفس الكذوب الاعتراض . والاعتراض موقف اغتراري ذلك أن النفس في هذا الوصف تظن أنها تستطيع أن تصدر حكماً في كل شيء ، وأن تقف موقف القاضي الذي لا يخطيء أبداً . وبذلك تشارك الله في ملكه . وتظن سفهها وظلماً أن بمقدورها أن تتعرف على خفايا الأمور بما أودع فيها من عقول[1] .

والاعتراض ظلمة في النفس واظلام في القلب . والنفس الذي هذا حالها ترفض النور وتقبع في الظلمة . وكلما جاءها الحق تعلقت بأذيال الباطل فهي نفس كذوب غارقة في الغفلة والنسيان .

﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين﴾
(لأنعام ٤)

﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين﴾ (الشعراء : ٥)

(١) ابوطالب المكي ـ قوت القلوب جـ ١ ـ ١٧٨ ـ طبع حلبي ـ ١٩٦٩م مصر .

والذي لا يستسلم لحكم الله ، ويرضي بما قسمه له من رزق ، تراه دائم الشكوى والاعتراض ، يظن أن هناك ظلم شديد وأنه تعالى لم ينصفه ، فكيف يحظى هؤلاء الذين هم في اعتقاده ضعفاء فقراء جهلاء لا يستحقون هذه النعم ويبخل عليه ويمسك عليه في الرزق والنعم ، ويتولد في قلب المعترض الحسد والحقد على غيره . ويتمني زوال النعم عنهم[1] ، ويطلبها لنفسه ، فاذا لم يتحقق له ما يريد ، بدأ اعتراضه على حكم الله يتخذ صورة التحدي وهو قمة الاعتراض ، فلقد رسخت في نفسه الكذوب أباطيل ومزاعم وأكاذيب تدعي أن الدنيا هي كل شيء وأن الآخرة ليس لها وجود ، ويصل الأمر إلى تحدي الخالق ـ جل وعلا ـ فيقولون للذين يدعونهم إلى الايمان اذا كان ما تزعمونه صحيحاً فاننا نود أن يلحق بنا العذاب ، أو يتملكهم الغرور فيظنون أن النعم التي أنعم الله عليهم بها لن تزول أبداً ، وحتي إن ماتوا فانها تبقي لهم في حياتهم الأخرى .

﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قآئمة ﴾ (الكهف : ٣٥)

وهذا الموقف يليه موقف آخر أكثر اعتراضاً وتحدياً :

﴿ إن هذا الا خلق الأولين وما نحن بمعذبين ﴾

(الشعراء : ١٣٧ ـ ١٣٨)

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ (العنكبوت : ٥٣)

---

(١) الامام الغزالي ـ تنبيه المغتربين (وقد افاض في شرح طبقات المغتربين) .

﴿ فما كان جواب قومه إلآ أن قالوا ائتنا بعذاب الله ﴾

(العنكبوت : ٣٩)

ليس موقف التحدي إذن نسيانا أو غفلة أو كذباً فحسب بل إنه تحدي لله سبحانه وتعالى :

﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ (العنكبوت . ٥٣)

وليست هذه المواقف حتي يعجز المرء تنفصل كل منها عن الأخرى ، إنما تتشابك الأوصاف وتتداخل المواقف حتي يعجز المرء عن تبيان الموقف المحدد أو الوصف المعين الذي يمكن أن يقرن بهذا السلوك أو ذاك .

فالنفس الانسانية معقدة شديدة التعقيد تتلون بألوان مختلفة ، وتغير ألوانها بحسب ظروفها وأحوالها فلا تثبت على حال[١] فهي تظهر متعددة ، واقنعة مختلفة ، فتتظاهر أحياناً بالاخلاص وهي كاذبة مرائية ، وتبدو طائعة للعيان وهي عاصية ضالة مضلة[٢] .

إلاّ أن النفس عندما تجاهد نوازعها الباطنية ، ومتطلباتها الشهوية ، وحاجاتها البطنية والجنسية فانها تتخذ بذلك طريقها إلى الاستقامة ، وتتطبع بطباع كريمة ، وأخلاق نبيلة ، ومع ذلك يمكن أن تقع في الخطأ وتضعف فتسقط في النسيان ، وهذا حال كثير من الناس والعباد وهو التأرجح بين الاستقامة والنسيان ، والخطأ والاعتدال .

وإذا أردنا أن نبين حال السائرة في طريق الله ، وأن نوضح

---

(١) د . عزت راجح : اصول علم النفس ص/٢٠٣ .

(٢) د . عزت راجح : الامراض النفسية والعقلية ١٣ ـ ٢٠ .

مواقفها وأوصافها ، فاننا نبدأ بموقف المحاكاة وننتهي بالتوحيد المطلق الذي هو حال النفس المطمئنة الراضية المرضية .

وتجدر الاشارة أنه ليس بالضرورة أن تكون رحلة النفس في طريق الايمان واحدة ، إذ تختلف كل نفس عن الأخرى في القدرة على الثبات والتقدم إلى الموقف الأعلى ، كما يمكن أن تسقط النفس وتنتكس فتدخل في زمرة الجاهلين وتتبع الأهواء وتنقاد إلى الغواية ، فان السلم النفسي ليس طريقاً معبداً يصعد به إلى أعلاه . كما أنه ليس طريقاً معوجاً يقود إلى الضلال والكفر إذ يجوز أن تتخلص النفس الأمارة ــ برحمة من الله ــ من شرورها وآثامها وتتجه بالكلية صوب الاعتدال والاستقامة .

﴿ ومآ ابرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوٓء إلاّ ما رحم ربي﴾ .

والنفس السوية يمكن أن تسلك المواقف الصحيحة ، وتتصف بالصفات الحميدة ، وبذلك يزيدها الله تثبيتاً وتأييداً في القول والعمل ويمكن توضيح أدوار هذا السلم النفسي في المواقف والأوصاف النفسية الآتية :

الموقف الأول : المحاكاة والتقليد :

يبتدىء السلم الايماني بمحاكاة القدوة الحسنة ، والتقيد بأفعالها وأعمالها ، وسلوكها ، وترتبط المحاكاة بالثقة وحسن الظن في القدوة ، ومن ثم كانت تربيته على الاقتداء بالرسول ﷺ باعتباره المتمثل للكمالات الانسانية ضرورة تقتضيها تنشئة الانسان المسلم .

فاذا كان الوالدان متمسكان بالقرآن الكريم وبالاقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى وإنما بوحي من عند الله عز وجل ، نشأ الطفل على طريق الايمان وحاكى والديه في الاتباع والعمل بما أمر الله ، وترعرع على محبة الدين والسير في طريق الحق والرشد .. فالمحاكاة هي بداية السير الا أنه يمكن أن ينزلق الطفل إلى محاكاة أصدقاء السوء وتقليد سلوكهم إذا لم يجد القدوة الحسنة التي يحاكيها فالطفل كالصفحة البيضاء يطبع فيها ما يخبره ويتعلمه ويربي عليه[1] .

الموقف الثاني : الاقتناع :

وعندما يشب الطفل عن الطوق ، ويكتمل نضوج العقل ، فانه يبدأ بعد مرحلة المحاكاة والتقليد ، يثير أسئلة تختمر في نفسه يريد لها جواباً شافياً فاذا وجد الناصح الأمين والمربي الذكي الخبير ، ترتب على ذلك اقتناعه بما يحاكيه من أفعال وسلوك وتصرفات ، ووقر في قلبه سلامة الطريق .

إلاّ انه إذا لم يجد المربي الرشيد الذي يشرح له أمور دينه ويعرفه بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقامة الصلاة وقبل كل ذلك يبين له أن ذلك كله يعبر عن التوحيد والتوحيد ينبثق من كلمة لا إله الا الله التي تحوي كل شيء إذ هي دليل الانسان في الليل البهيم ، فاذا تركها ضل السبيل .. وتشعبت به الطرق ، وأصبح كالأعمى لا يرى النور المشرق .

---

(١) احيء علوم الدين : الجزء الاول كتاب العلم .

الموقف الثالث : الاعتقاد :

وإذا سار الانسان وهو مقتنع بأن لا إله إلاّ الله وأنه بدونه يغرق في بحر لجى من الضلالات والأباطيل والغرابة ... إزداد تمسكاً بالله ودافع عن قناعة بما يعتقد إنه الحق والصواب ... وبدأ يستخدم حججه العقلية وبراهينه في الدفاع عن عقيدته[1] ...

لكن الاعتقاد ليس بكاف للدخول في حظيرة الايمان إذ انه مع وجود الاعتقاد بأنه لا إله إلاّ الله فان الانسان يمكن أن يقع في الاثم والأخطاء بل ربما يخرج بالكلية عن حظيرة الايمان إذ لم يسرع فيطبق ما يعتقده ، ويجاهد بنفسه وعقله وقلبه جميعاً في اتباع الأحكام والمعاملات في نفسه ومع غيره .

والاعتقاد يمكن أن يوصل الانسان إلى بحر الأمان إذا لم يكن جدلاً فارغاً ، وسفسطة لا فائدة منها تقود إلى الانحراف عن سواء السبيل .

الموقف الرابع : الاعتناق :

وإذا ما أخلص الانسان في اعتقاده بالله ، واتبع ما أمر به تعالى وانتهى عما نهى عنه ، بدأ دور القلب في الظهور ، وشارك العقل في اعتقاده وترسخ الاعتقاد بالاعتناق ، وكان من الصعب أن يغير المسلم اعتقاده ، ولم يستطع الملحدون أن يحللوا اعتناقه للدين القيم والشريعة السمحة ، إذ أن الاعتناق دليل على أن المسلم قد بذر في نفسه بذور الايمان .

---

(١) احياء علوم الدين : الجزء الاول كتاب العلم .

إلاّ أن الاعتناق يمكن أن يتصب على العقائد الفاسدة ، ويشتمل على جنوح المعتنق إلى الضلال ، ذلك إذا لم يستمسك الانسان بالعروة الوثقي ، ولم يجاهد النفس والشيطان جميعاً ... فكم من أناس اعتنقوا بعض المذاهب الضالة الخارجة عن الاسلام وزعموا أن ما اعتنقوه من حقائق الدين ...

الموقف الخامس : الايمـان :

وهو الحظيرة الآمنة التي ينتهي إليها المسلم ، والمحاكاة والاقناع والاعتقاد والاعتناق هي مراحل يبلغ لها الطالب الصراط المستقيم وهداية الله ، والمؤمن تستقر في نفسه ويطمئن قلبه في رحاب الله وتشمله السكينة فلا يجد غير الله معيناً ونصيراً .

﴿ هو الذيٓ أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ﴾ .

وكلما ذكر المؤمن الله ، وعمل في رضائه تعالى ، وجاهد في سبيله ترسخت عمد الايمان في قلبه ولم يجد الا حلاوة الايمان في قلبه :

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

والايمان بالله إذن مقام النفس المطمئنة الراضية المرضية ، وهو غاية المسلم ومبتغاه ، وبدونه تتغير النفس في أحوالها ، وتخلط عملاً طيباً بعمل خبيث ولا تعرف أيهما هو المؤدي إلى القرب من الله ... والنفس الأمارة لم تهتد بعد إلى الدخول في حظيرة الايمان ، إذ

يغلب على دوافعها حب الشهوات ، ويظهر في سلوكها موافقة الأهواء والحظوظ ... وبذلك تنسلخ عن الحق والصواب كما تنسلخ الحية الرقطاء ، ولكن الله تعالى . يتوب على من يشاء ويغفر لمن يشاء فيشمل تلك النفس برحمته فيجذبها إلى حظيرة الايمان .

آفات النفس في النظرة الاسلامية

يرجع كثير من علماء النفس الغربيين الأمراض النفسية الى أسباب ومسببات وعلل ومعلولات وظروف بيئية ونواحي وراثية . ويفترضون لذلك الفروض ويغرقون في التخمينات ويجمعون ارهاصات لا تستند إلى دليل عقلي ، ولا برهان علمي ، لذلك فان كثيراً من تفسيرات الشخصية ، وتعليلات السلوك تحتاج إلى تفسير إذ هي غامضة أشد الغموض ...

ومن تلكم الأسباب التي يفترضون أنها تلعب دوراً في نشوء المرض النفسي ، وظهور السلوك الشاذ ، والتصرفات غير السوية . والشعور بالنقص والاضطهاد والضعة وجنون العظمة ، المازوخية ، الوساوس والهلوسة والهواجس والاكتئاب النفسي واليأس والقنوط إلى غير ذلك من الأشكال المرضية النفسية .

ومن تلكم الأسباب التي يفترضون أنها تلعب دوراً في نشوء المرض النفسي عدم التكيف وعدم التوافق وضغوط البيئة وعقدتي أوديب والكترا ، كما يركزون على فترة الطفولة المبكرة باعتبارها الفترة التي تتكون فيها الشخصية وأما فترة المراهقة والشباب فهي بمثابة طلاء لها ، فالتدليل الزائد للطفل يسبب فيما بعد شخصية

متسيبة رعناء ، كما أن التذبذب [1] في معاملة الطفل يجعله غير قادر على التعرف على السلوك الواجب الاتباع ، ومن ثم اخفاقه في التمسك بالقيم والمفاهيم فتتكون لهذا الطفل فيما بعد شخصية مترددة في كل شيء كما أن القوة في معاملة الطفل تجعله شخصاً مكتئباً قاسي القلب [2] ...

وربما تكون هذه الأسباب عوامل مساعدة للمرض النفسي لكنها في واقع الأمر ليست الأسباب الحقيقية للمرض النفسي ، فكم من أطفال نشأوا وترعرعوا في ظروف قاسية أو بيئات فاسدة لكنهم اتخذوا لأنفسهم خطا مستقيماً وسلكوا سلوكاً سليماً ، ورفضوا تقليد ذويهم في النواقص أو ارتكاب المعاصي ، والآيات القرآنية شاهدة على صدق ما نقول فهذا ابراهيم عليه السلام كان أبوه كافراً يصنع الأصنام فحطم ابراهيم عندما شب عن الطوق الأصنام ، وهذا ابن نوح نشأ في بيت النبوة لكنه اتبع هواه وظلم نفسه وكفر برب العالمين ، والأمثلة كثيرة ومتعددة تظهر أن كل إنسان مسئول عن عمله والا كان يلزم أن يكون ابن الفاسق فاسقاً ، وابن التقي تقياً وفي هذا يقول عز من قائل :

﴿وكل انسان الزمناه طائره في عنقه﴾

فالانسان متي اكتمل رشده ، وبلغ من العمر ما يؤهله أن

---

(١) سيجموند فرويد – الموجز في التحليل النفسي – ترجمة دكتور سامي محمود ص/١٤ – ١٦ .

(٢) د . عزت راجح : الامراض النفسية والعقلية ص/٣٢٣ .

يعرف الحق من الباطل ويميز بين الصحيح والفاسد[1] . عليه أن يتجنب الشر ويقبل على الخير بما أودع من موهبة العقل فلا يطيع هواه والا سقط في براثن الشرك والضلال .

كما اننا لا نتفق مع علماء النفس الغربيين الذين يزعمون أن عقدتي أوديب والكترا اذا لم يتسام بها الشخص أو إذا لم يتخذ لنفسه طرقاً تحويلية في مقابلها عجز عن التكيف وأصيب بالنكوص وظهرت عليه الأعراض المرضية[2] .

فليست العلاقة بين الأم وولدها علاقة جنسية كما يزعم فرويد كما أنه ليست العلاقة بين الأب وابنته من هذا النوع ، فكيف تدنس اطهر علاقة في الوجود واعظم حب لا مصلحة فيه ولا منفعة ، ليصبح علاقة حيوانية تهبط بالانسان إلى أسفل سافلين وقد خلقه تعالى في أحسن تقويم ...

هناك أسباب أخرى أعمق واصدق للمرض النفسي ولن نفترضها أو تخمنها كما يفعل علماء النفس الغربيون ، لكنا سنرجع إلى القرآن الكريم ، ففي آياته البينات خير مرشد ومعين ..

يقول تعالى :

﴿ اولٓئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولٓئك هم الغافلون ﴾ (النحل : ١٠٨)

---

(١) الامام الغزالي ــ احياء علوم الدين ــ كتاب العلم ــ الجزء الاول ص/٣٤ وما بعدها .

(٢) والامثلة كثيرة على إمكان تغير الأخلاق من القبيح إلى الحسن فالتوبة ميلاد جديد للإنسان ، للمزيد راجع كتابنا « نحو علم نفسي إسلامي » ص/١٤٩ .

فالغفلة هي نسيان الحق ، وتجاهل الفطر السليمة ، وظلم للنفس . واتباع للهوى ، وموافقة للغواية الشيطانية[1] :

﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾

(الأنبياء : ٩٧)

إذن ترتبط الغفلة بظلم النفس وهو الذي يقود إلى الشرك .

﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان : ١٣)

فالغفلة تقود إلى الظلم والظلم للنفس يقود إلى الشرك ومتي وصل الانسان إلى هذا الحال عطبت نفسه وفسدت موازينه ، ووقع فريسة للريبة والشك والرجفة والوسوسة واليأس والقنوط ، وربما تظاهر تجبرا واغترارا بالقدرة أو العبقرية فيقع في أمراض نفسية أكثر فتكاً به مثل جنون العظمة أو «النرجسية» أو ما يسمونه «عبادة الذات» وكثيراً ما يصل هؤلاء إلى الفشل الذريع أو الاخفاق فيلجأون إلى الانتحار وهذا أظلم نهاية لحياتهم .

وكما ترتبط الغفلة بظلم النفس ، فانها ترتبط من ناحية أخرى بالنسيان وذلك النسيان هو الذي يقود بدوره إلى الغفلة ، والنسيان بهذا المعني أول مراتب الغفلة لأنه ثمرة ضعف الارادة ، وقلة العزيمة :

﴿ولقد عهدنا إلى آدم فنسي ولم نجد له عزماً﴾

لكن استمرار النسيان ، كالتكاسل عن أداء الحقوق ، والخمول في القيام بالتكاليف يؤدي في نهاية الأمر إلى الغفلة والظلم

---

(١) الجيلاني ـ الفتح الرباني ص/١١٣ .

للنفس ، لأنه أصبح رياء ونفاقاً فيستطهر الانسان بالطاعات ويخفي في قلبه حب المعصية والمخالفات :

﴿ **نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ (التوبة . ٦٧)

إن المنافق مريض نفسياً ، فهو المرائي المظلم القلب ، الكاذب الذي يكذب على نفسه أولا ثم يكذب على الآخرين ثانياً :

﴿ **ومن أظلم من ذكر بآيات ربه فاعرض عنها ونسي ما قدمت يداه** ﴾ (الكهف : ٥٧)

لذلك لكي تحقق الصحة النفسية للانسان يجب عليه أن يذكر الله تعالى كلما نسي :

﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ (الكهف : ٢٤)

لأن الشيطان في حال النسيان يستولى على النفس فيهول إليها الأمر ، ويلهيها عن الحق ، ويحسن لها القبيح ويقبح لها الحسن ويكدرها ويوسوس لها حتي تظلم وعند ذلك يتركها في الشرك العظيم .

﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله** ﴾ (المجادلة : ١٩)

وإذا ما استحوذ الشيطان على النفس فسدت ومرضت وأصبحت نفساً أخرى غير نفس صاحبها لأنها تقع في الأفكار الخاطئة والدعاوي المغرضة فضلاً عن الهواجس والوساوس والخوف والاكتئاب :

﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾

(الحشر : ١٩)

وكما ترتبط الغفلة بالنسيان والنسيان بالنفاق فان النفاق يرتبط

بالكذب : ﴿والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾ (المنافقون : ١)

يقول الرسول ﷺ :

« **مازال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتي يكتب عند الله كذابا** » وبالجملة فان أسباب المرض النفسي من وجهة النظر الاسلامية يمكن ايرادها في النقاط الآتية :

١ ـ الكذب . ٢ ـ النفاق والرياء . ٣ ـ النسيان . ٤ ـ الغفلة . ٥ ـ ظلم النفس . ٦ ـ الشرك .

وأما الظروف البيئية والاجتماعية والعوامل الوراثية والضغوط النفسية إلى آخر ذلك من العوامل فهي يمكن أن تلعب دوراً ايجابياً أو سلبياً بمعني أنها ربما تقود إلى الصحة النفسية وذلك باستخدام النفس لعوامل كظم الغيظ أو الصبر أو ترتفع النفس إلى العفو والتسامح ثم إلى الاحسان ، كما أن النفس الغافلة الكاذبة الناسية لأمر الله تنقاد إلى الأهواء وتظلم نفسها فتقع في اليأس والقنوط وتنهشها الوساوس وتقدرها الهواجس وتنزل بها الخوف والقلق الشديد[1] .

الخلق وقوى النفس

يقصد بالخلق السجية والطبع وما يجرى عليه المرء من عادات لازمة له[2] ، والخلق أما حسنا كما ورد في قوله تعالى :

﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم : ٤)

---

(١) عبد القادر الجيلاني ـ الغنيه جـ/٢ ص/١٥٨ وما بعدها .

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم جـ/١ ص/٢٦١ ـ المجمع اللغوي .

واما سيئاً ، كما ورد في قوله تعالى :

﴿ إن هذا الا خلق الأولين ﴾ (الشعراء : ١٣٧)

وإذا كانت أفعال الانسان جميلة ومحمودة ، ومقبولة عقلاً وشرعاً ، سمى صاحبها بذي الخلق الحسن ، أما إذا كانت أفعاله قبيحة ومذمومة ، سمى بذي الخلق السيئ

فالكريم والجواد والعفيف والتقي الورع وغيرهم ... من أصحاب مكارم الأخلاق ، إنما يتصفون بالحق الحسن ، لما طبع في نفوسهم من الفضائل ، وما رسخ في قلوبهم من الحكمة ، ولم يكن ذلك بسبب عرض زائل ، ولا لأسباب وعلل مؤقتة ، لأن الأخلاق الكريمة لا ترتبط بمصالح أو منافع عابرة ، ولا بظروف معينة ، إذ أن أخلاق أصحاب الفضائل ثابتة دائمة[1] ..

وكذلك الأمر بالنسبة للخلق السيء كالبخل والشح والفجر والعهر والشره والجشع وغير ذلك من الصفات الذميمة . فان أصحابها لا يتصفون بها ، إلاّ إذا كانت طبعاً فيهم ، وقد رسخت في نفوسهم ، وتمكنت منها فلا يستطيعون منها خلاصاً . لأنها دينهم وعقيدتهم ، إذ أنها ليست نتيجة حادث عارض أو سبب عابر .

ويرى الامام الغزالي[2] أننا يمكننا أن نصف صاحب الخلق الحسن بالحسن ، أو صاحب الخلق السيء بالسوء .. عندما تصدر

(١) الاحياء ـ جـ/٨ ـ ص/١٤٣٥ ـ ١٤٣٧ .

(٢) الامام ابوحامد الغزالي ـ احياء علوم الدين ـ جـ/٨ ـ ص/١٤٣٥ ـ ١٤٣٧ مطابع دار الشعب .

أفعال أى منها دون روية ، أو تفكير .. فهذا يظهر أخلاقه ، ويبين رسوخ الطبع فيه .

وقد يظهر شخص الشح والبخل ، رغم أنه السخاء والجود . وإنما يفعل ما يفعل بسبب عارض كفقده ماله ، أو حادث يسبب له هذا الحال ، فيصبح مقترا ، ولذلك لا يحسن الحكم عليه إلاّ بعد أن يزول السبب ، لأن ما يحدث منه إنما يعون نتيجة ظروف معينة ما تلبث أن تنقضي ، فيعود هذا الجواد إلى طبعه الأصلي من السخاء .

وعلى العكس من ذلك ، يجوز أن يكون شخص ما . خلقه الشخ والبخل ، ولكن لعلة مؤقتة . كرياء أو نفاق أو تعجب ، نجده يظهر السخاء والجود ، وينفق عن سعة على المحتاجين ارضاء لنفسه ، أو استرضاء لبعض الناس من حوله ، ثم ما يلبث أن يرجع إلى طبعه في البخل والشح ، بعد أن تتحول العلة ، وينصرف عنه الطارئ .

والأخلاق الكريمة كل لا يتجزأ ، فلا يتصف أحد بفضيلة دون غيرها . والا عد ذلك نقصاً في أخلاقه ، كما يقال للوجه أنه غير جميل . كأن يكون الأنف افطس ، أو الفم قبيحاً ... ويقال بالاطلاق أن صاحب الوجه غير جميل عندما لا يكتمل الجمال ... إذ لا بد من اكتمال جمال الأجزاء .

كذلك الأمر في مجال الأخلاق ، يجب أن تتكامل الصفات الباطنية للشخص حتي يتصف بحسن الخلق ، فاذا توافرت له الأسباب التي تدعو إليها مكارم الأخلاق ، كان صاحبها حسن

الخلق ، فاذا نقصت في شخصه فضيلة من الفضائل كانت تلك دلالة من دلائل النقص في أخلاقه..

والاخلاص عمل في الباطن ، وسلوك ينبع من الداخل ، وقوى محركة من القلب ، والخلق الباطني ينقسم إلى أقسام أربعة يتكامل بعضها مع البعض الآخر :

أولاً : قوة العلم .

ثانياً : قوة الغضب .

ثالثاً : قوة الشهوة .

رابعاً : قوة العدل .

وسنتكلم عن كل شيء بالتفصيل .

قوى النفس

للانسان قوى متحركة من الداخل ، وتعمل على تشكيل سلوكه الظاهري ، وهي بهذا المعنى خلق باطني يمكن أن تقسم إلى أربع أقسام يتكامل بعضها من البعض الآخر :

١ ــ قوة العلم . ٢ ــ قوة الغضب . ٣ ــ قوة العدل . ٤ ــ قوة الشهوة .

قوة العلم :

إن آية القوة في العلم ، إنما تتضح في قدرة الانسان على التفرقة بين الصدق والكذب ، وعلى التمييز بين الحق والباطل في مجال الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح فيما يتعلق بالأفعال ...

فاذا تكاملت قوة العلم ، أثمرت ثمرة يانعة من ثمار المعرفة[1] ، بل هي أشرف وأعز ما يتحصله الانسان .. الا وهي الحكمة ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ (البقرة : ٢٦٩)

والحكيم بهذا المعني . على رأس أصحاب مكارم الأخلاق إذ الحكمة قمة الأخلاق ، وينبوع الحق والعدل والفضيلة .

قـوة الغضب :

لا يعد الغضب عند بعض الأئمة[2] شراً كاملاً ، إنما يرى في بعض الأحيان صالحاً وتاماً ، وذلك عندما تقتضي الحكمة ذلك .

فاذا كان الغضب من أجل الدفاع عن الوطن أو العرض أو الحق أو الدين ... كان ذلك دليلاً على صلاحه وتمامه بشرط أن يكون مرتبطاً بالحكمة ، ومقترناً بها ، إذ هي الأساس الذي يحرك هذه القوة في الطريق المستقيم والعمل الصالح ...

أما إذا كان الغضب بلا حكمة أو بلا سبب ، مما سبق ذكره ، استخدمت هذه القوة في غير موضعها ، وكان صاحبها آثماً ، ومن ثم تعتبر هذه القوة فاسدة وذميمة ، ويتصف صاحبها بالخلق السيء .

قـوة الشهوة :

وكذلك الشهوة ، فانها لا تعد في جميع الأحوال من

---

(١) راجع قوت القلوب ـ ص/٣٧٠ ـ جـ/١ .

(٢) الامام ابوحامد الغزالي ـ احياء علوم الدين ـ جـ/٨ ص/١٤٣٥ وما بعدها .

الرذائل ، إذ أنها قوة من قوى الانسان الحسنة ... متع كانت تتبع ما تقتضي به الشريعة ، وما يحكم به العقل .

والقوة الشهوانية إنما تكون صالحة وحسنة ، إذ سارت تحت امرة الحكمة ، واتبعت الصراط المستقيم ، أما إذا استخدمت الشهوة لجلب اللذات وموافقة الأهواء ، بلا حكم شرعي فانما يكون صاحبها من الضالين .. نفسه ظلومة ظالمة .. لأنه يخالف الشرع والعقل ، ويقترف الآثام ، ويأمر بالمحظورات والمحرمات . ويأتي بالمستقبحات ... وهنا لا يمكن أن يعرف بالحكمة ، وإنما يوصم بالسفه والجهالة والرعونة والطيش ...

قــوة العدل : (١)

والقوة الرابعة ، إنما تكمن في قوة العدل ، وهذه القوة ترجع إلى النفس ، إذ أن النفس هي التي تحكم على قوتي الغضب والشهوة . وتأمرها باتباع هذا الطريق أو ذاك ...

وقوة العدل تمتاز بقدرتها على التمييز بين ما هو شرعي ومقبول عقلاً ، وبين ما هو محرم ومتروك شرعاً .

وتتمثل هذه القوة في ضبط النفس أو بمعني آخر ، في ضبط قوتي الغضب والشهوة ، وهي دائماً تحت سلطان وامرة واشارة الحكمة ...

وتنمو قوة العدل من قوة العقل ، فكلما كان العقل واعياً سليماً حكيماً ، كان العدل استقامة وقسطاً بين قوتي الغضب والشهوة ،

---

(١) الامام ابوحامد الغزالي ـ الاحياء ـ جـ/٨ ص/١٤٣٥ .

أما إذا كان العقل مريضاً .. فلا انضباط بين قوتي الشهوة والغضب ، وبذلك يفقد الشخص اتزانه وتكامله .

وأما إذا تكاملت القوى الأربع للنفس وتصالحت ، اتصف صاحبها بالخلق الحسن أو بالأخلاق الكريمة ، وأما إذا نقصت قوة من هذه القوى في اعتدالها وكمالها ، فان صاحبها يتصف بالأخلاق الحسنة الثلاثة المتكاملة دون أن يتصف بالاعتدال في القوة الرابعة . إذ لا يمكن أن يتصف الا بما هو حسن فيه فقط .

وتكامل الشهوة يعتبر عنه بالعفة ، نقصت قوة الشهوة في الانسان سمي ذلك جموداً ، وإذا زادت سمي ذلك ضعفاً .

وخلاصة القول أن مكارم الأخلاق ، إنما تنبع من وسط عدل .. وبذلك يكون الانسان شجاعاً وعفيفاً وعدلاً وحكيماً .

الفصل الرابع
النظرة الاسلامية للانحراف الأخلاقي

لقد خلق الله تعالى في الانسان الشهوة والغضب ، (ذلك فلا يعتبر الاسلام الشهوة أو الغضب في ذاتهما حراماً أو حلالاً ، الا باقترانهما بالأفعال المحرمة) والمباحة . فالشهوة قد خلقت لفائدة وهي ضرورية للانسان ، مجبول عليها في تركيبه الفكري . فلو محيت الشهوة من الانسان . لانقطع عن الطعام . ومات وهلك . كما انه لو انقطعت عن الانسان شهوة الجماع ... ما عاشت الانسانية ... ولتوقف التناسل بين الناس ...

كذلك الأمر بالنسبة للغضب ... فلو أعيق الغضب بالكلية ، ما استطاع الانسان أن يدافع عن نفسه ، ولا عن شرفه . ولا عن وطنه .

وكذلك فان الشهوة مرتبطة بالمال وجمعه . لأن حب المال هو الطريق الموصل إلى الشهوة . فاذا امتنع المال نهائياً .. بطلت الشهوة بالكلية ....

والاسلام ينظر إلى الشهوة والغضب وحب المال ... نظرة مختلفة تماماً عن نظرة فلاسفة الأخلاق ... إذ أن الأخلاقيين ينظرون إلى الحياة الدنيا على أنها الحياة الباقية .. ولذلك فهم

يفلسفون مواقفهم تبعاً لأخلاقيات المجتمع ، ونظرة المشرع الذي يستهدف الصالح العام والآداب في المجتمع .

ويوجد كثير من الاختلاف بين نظرة أصحاب النظريات الأخلاقية الواجبة .

فالاسلام ينظر إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط ، وليس هذا الاعتدال .. اعتدالاً حسابياً ـ كما هو عند الفلاسفة ـ أمثال افلاطون وارسطو[1] ولا هو جدلا بين متناقضين .. ليرتفع وسطاً جديداً بينهما كما هو عند هيجل[2] . ولا هو وسطاً عقلانياً ناتجاً من ضغط البيئة على الافراد ، ونرد الفعل من الأفراد على البيئة ـ كما نجد ذلك عند برجسون[3] .

إنما الوسط الاسلامي .. وسط عدل .. يقصد به الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال ، بحيث لا تتغلب الشهوة على الفطرة السليمة ، ولا يقهر الغضب العقل الراجح ... السليم ...

ويستخدم الاسلام طريق الرياضة النفسية للوصول إلى هذا الاعتدال حتي تتوازن أحوال النفس ... فلا تستولى الشهوة على الانسان .

الرياضة النفسية إذن تحلية وتخلية ، وبذلك تكون النظرة الاسلامية أكثر عمقاً في فهم النفس البشرية ، عن المذاهب

---

(١) يوسف كرم ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ص/٦٣ ـ ٩٧ .
(٢) د . بارودي ـ المشكلة الاخلاقية والفكر المعاصر ص/٢١ ـ ٢٣٧ ترجمة د . محمد غلاب .
(٣) هنري برجسون ـ منبعا الاخلاق والدين ص/١١ ـ ١١١ ترجمة د . الدروبي .

والنظريات الأخلاقية . قديمها وحديثها إذ أنها تعتمد على عنصر جديد ، هو المجاهدة وهي سلوك عملي . وليس فكراً نظرياً أو تأملياً ... أو فلسفة مثالية ...

وبذلك يمكن تغيير الأخلاق من حال إلى حال . من الأنانية إلى الايثار . ومن الاعتدال إلى الاحسان . ومن الضلال إلى الهدى ومن الغرور إلى التواضع .

وأجل ما في الأخلاق الاسلامية . أنها صالحة لكل زمان ومكان . لأن مصدرها المشرع الأعظم ... الحق تعالى . الذي يعرف خلقه ويعرف ما يصلح لهم . وما لا يصلح ....

فالذي يسير على الأخلاق الاسلامية . يكتسب الصحة النفسية . ليس في الدنيا فحسب .. بل في الدنيا والآخرة .

ولا يمكن الوصول إلى الصحة النفسية .. ومكارم الأخلاق . الا بتهذيب النفس بالمجاهدات والرياضات ، فاذا كان الانسان مقصراً . لخبث في دخيلة نفسه ونقص في باطنه .. ومرض في قلبه . استفحل الداء وصعب العلاج .

لذلك يقسم الامام الغزالي الناس إلى أربعة مراتب[1] :

أولاً : الشخص المتصلب (الغافل)[2] :

وهو الذي لا يستطيع أن يفرق بين الشر والخير في الأعمال . ولا يمكنه أن يميز بين الحق والباطل في الأفعال . ولا بين الجميل

(١) الامام ابوحامد الغزالي – احياء علوم الدين جـ ٨ ص ١٤٣٨ .
(٢) لم يذكر الامام الغزالي مسميات اصحاب هذه الاخلاق . ولقد سميناهم باسمائهم كما يفهم من كلام الائمة الاسلاميين في معالجة موضوع الاخلاق

والقبيح من الأشياء .

وهو الذي يبقى على ما فطر عليه من الغرائز دونما تهذيب أو تربية كالطفل الصغير فاقد التمييز . أو كالذي يرى كل شيء حوله فارغاً تماماً من المعاني ، لم تنم في نفسه بعد فطنة أو يقظة . ولا يؤمن بشيء...

فقلبه ونفسه جميعاً خاليين من الايمان والاعتقاد ، وهو كالفاكهة الفجة . التي يعتقد عن جهل أنها لذة للآكلين[1] .

وهذا الشخص المتصلب الذي لم ينضج بعد إنما هو في حاجة ماسة إلى معلم أو مرشد ذكي فطن . عارف بالخواطر الشيطانية عالم بخفايا النفس وميولها إلى الحظوظ والأهواء .

والمتصلب[2] في موقف متجمد . تسيره مألوفات العادات . وتحركه مقتضيات الغرائز . وهو محتاج إلى دافع وباعث يحركه من داخله . ويجعله مقبلاً على التغيير . عن طريق التكلف . وذلك بالرياضة والمجاهدة[3] . فاذا ما وفقه الله للقاء هذا الطبيب المربي . وهيأ له فرص خلاصه . تكون له الأساس والمبدأ . وبعد عن الفراغ والتصلب . وقويت ارادته . وتحسنت أخلاقه . وتوازنت قوى نفسه .. فلا تتجه إلى الافراط أو التفريط .. عند ذلك يصبح قابلاً للاصلاح .

كما يمكن أن تتحسن أخلاقه أيضاً عن طريق العلم الذي يمكن

---

(١) الامام ابوحامد الغزالي ـ احياء علوم الدين جـ ٨ ص/١٤٤ ـ ١٤٤٢ .
(٢) د . محمد فرغلي ـ مرضى النفس في تصرفهم واعتدالهم ص ٩ ـ ٧٥ .
(٣) راجع كتاب علم النفس الاسلامي للمؤلف

أن يبصره التفريق بين الحق وغير الحق ، وبذلك يصبح شخصاً سوياً صالحاً لنفسه ومجتمعه .

ثانياً : الشخص الشهوي[1] :

وهو شخص لم يتعود بعد على أفعال الخير والصلاح ، يعرف قبح القبيح ، ويفرق بين ما هو خطأ وما هو صواب . ويترك الصواب ذلك لاستيلاء شهوة النفس عليه ، فهو يريد أن يرضي نفسه . ويجلب لها ما يلذها ، ويتجنب ما يؤلمها فيزين له الشيطان سوء عمله .. فينقاد إلى طريق الانحراف والضلالة والغواية .

وهذا الشخص أصعب من الأول تغيير أسلوب حياته ، وتعديل سلوكه ولكن هناك طريقان لاصلاح أمره :

١ ـ أن يقتلع من نفسه ما رسخ فيها وما اعتاد عليه ، بحكم طبعه ... من الانحراف والفساد .

٢ ـ أن يجتهد في أن يغزو نفسه ويطبعها بالأمور الحسنة .. وبصالح الأعمال ، وهذا يقتضي منه إرادة في التوبة تساعده على هذا الغزو الجرىء ..

والشهوي يحتاج إلى رياضة نفسية لمحاربة أهواء النفس ، وغواية الشيطان ... وهذه وظيفة مزدوجة تحتاج إلى نشاط وحزم وعزم ، حتي يستقيم حاله ليعد حقاً من الأسوياء .

والشهوي يظلم نفسه ، فيقع في الشك والريبة وينتابه القلق والخوف والحيرة والضياع .. لأنه يعرف الحق ، ولكنه يسقط في

---

(١) الامام ابوحامد الغزالي ـ احياء علوم الدين جـ/٨ ص/١٤٤٠ ـ ١٤٤٢ .

الباطل .. وينقاد إلى الشهوة ، رغم علمه بفسادها ، فيصاب بالآفات التي هي مقتضي الشهوة .. كالاستعلاء ، والعجب . والغرور ، والدناءة ، والخسة والنذالة ، والوضاعة ، والجبن والبخل والشره .

فاذا تراكمت هذه الآفات ، وقع فريسة للأمراض واستحال إلى حيوان كاسر لا يستطيع أن يسيطر على زمام نفسه ، إذ تقوده الشهوة ... للوقوع في الهاوية ، فتفسد نفسه وقلبه وحاله جميعاً .

ثالثاً : الشخص المنحرف[1] :

وهذا النوع من الأشخاص له نظام ومنهج ، بل له مذهب يتأكد في تحسين القبيح ، وتقبيح الحسن ، فيرى الشر خيراً . والخير شراً . وتكون قاعدة سلوكه في الحياة ... أن يجعل من الأخلاق القبيحة غاية ، فهي في رأيه المكارم المستحسنة .. الواجبة التطبيق ، ويمارس ذلك دون خوف أو وجل .. لأنه تعود على فكر منحرف .. بل يرى أن كل ما يخالف طبعه باطل وقبيح .

فاذا كان الشر هو الأساس والمنطلق الذي يسير عليه هذا الانسان ، فعني ذلك أنه عدواني ... وشهواني ... وشيطاني لا يصلح معه نصح ... أو تغيير ، وذلك لتراكم الفساد والانحراف عن الحق وجادة الصواب .

فلا تقبل نفسه الا على كل ما يشبع لذاتها المنحرفة ، ولا ترضي إلاّ بما هو عدواني على الآخرين ، من استباحة الحرمات . وهتك

(١) الامام ابوحامد الغزالي ـ احياء علوم الدين جـ/٨ ص/١٤٤٠ ـ ١٤٤١ .

الأعراض . واغتصاب الأموال . وقتل الأبرياء . ليتحقق لها بذلك الأثرة . فهو يحب ذاته .. ويغلو في تدليلها .. وارضائها .. ويكره كل ما يمتلكه الغير .. بل يحاول الاستئثار به عناداً ويندفع نحو التدمير . حتي لا يكون في الوجود غيره . فهو شخص متسلط . متجبر . عدواني . يشعر باللذة في مذلة الآخرين وتحقيرهم .

ولا شك أن مثل هذا الشخص مريض . وقد يصعب علاجه . ولا يصلح أمره الا بطول العشرة لأصحاب الأخلاق الفاضلة . وأئمة العلاج النفسي[١] والخضوع لآدابهم . وملازمتهم ملازمة الظل . ليستزرعوا في نفسه بذور الخير التي تساعده على التخلص مما ألم به من آفات وشرور وانحراف ..

رابعاً : الشخص الشرير[٢] :

هو ذلك الذي يرى الفضيلة في كثرة الشرور .. ويفاخر بها . لأنه قد نشأ على الرأي الفاسد . وتربي على الفسق والغرور والفجور ...

فسعادته وهناء نفسه .. الأضرار بالآخرين . يفاخر بذلك ويشعر شعوراً ملازماً .. بأن ذلك معناه البطولة .. والرجولة ، فهو مجرم بالفطرة .. شرير على الحقيقة .. قد هرم في هذا الطريق . وليس بطفل يمكن اصلاحه . ولا بشاب يمكن رعايته ونصحه ووعظه . ولا بمائل إلى شر يمكن تقويم اعوجاجه . وإنما هو ذلك

---

(١) علم النفس الاسلامي – للمؤلف .
(٢) احياء علوم الدين – جـ ٨ ص ١٤٤٢ .

الشخص الذي يستمرىء الضلالة والفساد .. ويرى فيها وجوده وحياته ومستقبله جميعاً ...

والشخص الشرير .. يستعذب عذاب الآخرين . ويجد لذة عظيمة في التدمير والأذى . كما أنه لا يمكن أن يعيش بغير ذلك مهما نصح ووعظ . فلا أمل في اصلاحه بالكلية ...

وهذا الشخص يجب أن يعزل عن المجتمع . حتي يقضي الله في أمره . أو ينتهي أجله . أو يهديه الحق سواء السبيل .

في المرتبة الأولى . الشخص المتصلب جاهل فقط . يصلح حاله بالتربية والعلم والنصح والارشاد . وتعريفه بالخطأ والصواب .

أما في المرتبة الثانية فنجد شخصاً جاهلاً وضالاً . إلاّ أنه يمكن أن تغرس في نفسه مكارم الأخلاق . وتنبت في نفسه الأعمال الصالحة . ويعتاد على ممارسة الرياضة النفسية التي بها تتغير أخلاقه المذمومة ، وتستبدل بها أخلاق محمودة ...

وأما في المرتبة الثالثة . فنجد شخصاً جاهلاً وضالاً وفاسقاً ، بل هو منحرف نتيجة لاعتقاد كاذب . ورأى فاسد تراكمت عليه الجهالات والضلالات إذ يجب أن يعيد تربية نفسه من جديد ، واصلاح ما فسد من أمره . وتستوجب معالجته بمعرفة طبيب فاضل .. حاذق عارف بالخواطر النفسية . مجرب تجربة الحكماء .. حتي يستطيع أن يخلصه من هذه الآفات . ويرجعه إلى دنيا الأصحاب .

وأما في المرتبة الرابعة : فنجد شخصاً شريراً وهو جاهل .. وضال .. وفاسق .. وهو صاحب مبدأ الجهل .. لا يصلح له

حال .. ولا تستقيم له حياة الا بالشر ... لذلك يحيا منعزلاً عن الناس ، يكرههم ويكرهونه ، ولا طريق لعلاجه ، ولا سبيل لارشاده بالكلية ...

ومن حكمة الله في خلقه .. أن هذا الصنف الأخير من الناس ، قليل الوجود ، إذ أن من الندرة أن نجد إنساناً شريراً بالكلية . فأغلب الناس يتأرجح عمل الخير والشر ، وإلّا فسدت المعمورة إذا تغلبت الشرور ...

القصاص وعلاج العدوان

يقترن القصاص للجريمة والانحراف في علم النفس الاسلامي بالحياة الآخرة ، وهذا أعمق غوراً وأبعد أثراً وأقدر في علاج النفس البشرية مما لو اقتصر العقاب على فترة الحياة الدنيوية .

ذلك أن النفس البشرية تستسهل العقاب الدنيوي وتجد أنه من الممكن تلافيه إذا ما أحسن الجاني خطته ، وأبعد الشبهة عنه . أو ابتعد عن مسرح الجريمة وقت وقوعها واثبت ذلك بالأدلة والبراهين أمام القضاة والمحلفين ...

ورغم أن التشريع الاسلامي يعالج الجريمة بسلاح بتار يقتلعها من جذورها ولا يهادنها أبداً ، ورغم أنه أثمر نفعاً للنفس البشرية والمجتمع الانساني فانه لم يلق إلى الآن من الباحثين النفسيين وعلماء التربية وفقهاء القانون العناية الكافية منهم للانكباب على دراسته واظهار تفوقه في علاج أمر النفس وانحرافها ونزوعاتها في الاعتقاد والعدوان ...

لو أن هؤلاء العلماء والفقهاء تعاونوا على دراسة فلسفة العقوبة في الاسلام . وبينوا للعالم عن طريق الدراسة المقارنة النتائج التي تترتب على تطبيق العقوبة في التشريع الالهي والقانون الوضعي لتأكد للناس جميعاً تفوق التشريع الاسلامي على غيره من الانظمة والقوانين ولم يترددوا في تطبيقه والعمل باحكامه وقدموه على جميع القواعد القانونية وجعلوه النبراس الذي يقود إلى صلاح مجتمعاتهم ـ التي تعاني من الانحراف الخلقي والاجتماعي ـ بما يوفر عند تطبيقه من أمن نفسي واستقرار اجتماعي ...

إن من يتفحص فلسفة العقاب في التشريع الاسلامي يظهر له من الوهلة الأولى أنها تعالج رعونات النفس البشرية . وتقضي على وساوسها الخفية . وتستقلع من دواخلها التجبر والتسلط والتكبر . وتطهر جوانبها من الغرور والاغترار والعجب والحقد والحسد ...

إن الله تعالى عالم بخفايا نفوس عباده . ومن ثم جعل لهم لكل داء دواء . ولكل مرض علاج . ولكل جرم عقاب رادع فيه الثمرة المرجوة لصلاح النفس والجسم والمجتمع جميعاً ...

إن الجانب النفسي في العقاب الاسلامي يستهدف صحة النفس وصلاحها . فبالعقاب لا تقع النفس فيما يسمى بالألم النفسي وهو يفوق الألم الجسمي ألماً ويستمر أكثر أمداً ... إذ أنه اقتلاع لأسباب المرض وجراحه للورم الخبيث في باطن النفس ..

فالزاني أو الزانية يشعر أن بعد ارتكاب الجريمة بذلك العذاب النفسي . حيث أن الزنا ضد الفطرة السليمة . وما هو ضد الفطرة يفعله الانسان سراً . ويخاف أن يكتشف أمره وتظل نفسه ـ مادام

فيها خردلة من الايمان ـ في حالة من الخوف والفزع الشديد لا يخفضه الا العقاب أو بمعني أصح القصاص :

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾

(النور : ٢)

فالزاني ـ غير المحصن ـ يكون الجلد عقاباً مناسباً للصحة النفسية بالنسبة لحالته ، إذ يسكن رعونات النفس ، ويضبط شهواتها ، فلا ينطلق في غفلة من غير ما أحل الله ، وبذلك العلاج الرباني تهدأ النفس من سورتها ولا تعود لتستمرىء الشهوة الحرام من أخرى ، أما الزاني المحصن الذي اتبع هوى نفسه ، وغواية شيطانه . فانه لا يفلح معه الجلد فقد اعتاد على مقارفة الفحش وضل عن سواء السبيل ، واكتسبت نفسه جرأة في الباطل ، وأصبح له مذهب في الفساد والافساد لدرجة أنه يفعل الفحشاء في تبجح واصدار ولا يخشي أحداً عند اقتراف جريمته ، وكأنه يعلن فسوقه أمام الشهود العدول ، وينشر جريمة الزنا في تحدي وعدم مبالاة . لذلك كان القصاص لهذا الزاني الذي أعلن عن جريمته غير عابىء الرجم حتي الموت لأن نفسه نوازعها شريرة لا يصلح معها علاج . وكثيراً ما يرتكب الزاني من هذا النوع جريمته مع ازهاق روح الضحية ظلماً وعدواناً ... وهذا هو الظلم العظيم ...

وفي جريمة السرقة ، تبدو النفس أبداً خائفة من كل شيء . وتصبح حياة السارق هما وغما ، فمجرد مشاهدة مسرح الجريمة يؤرقه . ورؤية الشرطي تفزعه ، والمرور بجوار دار القضاء أو السجن يشحنه بالجزع ، فهو هياب دوماً من تأنيب الضمير ، ليله

مؤرق طويل . ونهاره خوف مقيم . فضلاً عن ذلك فان القوة الغبية تندفع من داخله . فتراه دائم التهجم كثير السباب . عديم المروءة غضوباً في جميع الأحوال .

وسبب هذا الغضب الشديد . أن جريمته التي اقترفها ضد الفطرة السليمة ومن ثم فهو ينوء بجعلها وكأنها تطارده في كل مكان وفي كل وقت وحين . ولذلك يستخدم أسلوباً عدوانياً . وسلوكاً غضبياً . ظاناً أنه يدفع عنه تبكيت الضمير . ويخفف من اتهامه لنفسه بالعدوان على مال الغير... والافساد في الأرض :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوآ أيديهما جزاءً بما كسبا ﴾

(المائدة . ٣٨)

إن النفس الانانية لا تشبع من جوع ، وكلما ازدادت مالاً ازدادت شراهة . فالنفس مادامت لم ترب على الايثار ، كان نزوعها إلى الاثرة والتسلط والفساد والافساد . والسارق أناني بطبعه تجده في غالب الأمر شحيحاً مقتراً لا يحب الا ذاته يريد أن يعيش على حساب الآخرين وإن ماتوا أو دمروا تدميراً . وهذه الأخلاق الذميمة تصبح طبعاً راسخاً فيه بحيث لا يستطيع منه خلاصاً الا بالقصاص والعقاب . وحتي إن وجد بعض اللصوص يبعثرون المال الذي سرقوه أو يسرفون عند انفاقه ، فليس ذلك بسخاء ولا جود ، وإنما تظاهر واستظهار حتي يكافئوا بمديح الناس لهم وثنائهم عليهم . وهذا يخفف من شعورهم الداخلي بالحقارة والنذالة والجبن الشديد...

ولا علاج لأمثال هؤلاء الا إذا أجتثت ادارة الجريمة وتخلص

ف•صاحبها نهائياً من قطعة عفنة من جسمه ، والا أصبح الجسم والنفس جميعاً عرضة للتعفن ولا يصلح عند ذلك عقاب ولا جلد ولا نفي في الأرض ... إذ لا بد من دفن هذا المتعفن حتي لا يصبح خطراً على نفسه والآخرين وينشر الفساد في كل شيء يحل فيه ...

لقد اعتبرت بعض القوانين الوضعية وخاصة قوانين الولايات المتحدة أن القاتل يدخل في عداد المرضي النفسيين ، وبذلك نصت في تقانينها على ايداعه المصحات النفسية حتي يبلى من مرضه المزعوم . وسبب هذا الاعتقاد الخاطىء هو أن القاتل يفقد عقله تماماً أثناء ارتكاب جريمته وعند ما يرجع إلى عقله يندم على فعله . فلو كان في زعمهم واعياً بما يقدم عليه ما ارتكب جريمته .

وردنا على هذا المنطق الغريب أن النفس البشرية واحدة في الأصل وقوى النفس الخير منها والشرير أودعه الله في جبلاتها منذ النشأة الأولى :

﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾

﴿ وهديناه النجدين ﴾

فالنفس الانسانية تجعل في جبلاتها القوى الغضبية فاذا بعدت عن الاستقامة نتيجة الجهل والضلالة ، ركبت الغضب وأغواها العدو الأول للانسان ابليس اللعين الذي استقطبها لحزبه الشيطاني وأصبحت من عباده المخلصين ، أغواها على الاقدام على سفك الدماء بدون وجه حق ، والفساد في الأرض ... وهذا بطبيعة الحال ضد الفطرة السليمة ، ومن ثم وجب اقامة الحد الشرعي عليه :

﴿ يآأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثي بالانثي ﴾ (البقره . ١٧٨)

﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزآؤه جهنم خالداً فيها ﴾

(النساء : ٩٣)

فالقاتل المتعمد قد خرج بالكلية من حزب الله ودخل في حزب الشيطان وأصبح من أوليائه والشيطان عدو الانسان الأول فكأن القاتل عدو الانسان وبذلك يصبح اقامة الحد عليه ضرورة لمصلحة الناس والمجتمع .

ثم إنَّ هذا القاتل المتعمد لا يقتصر القصاص منه في الحياة الدنيا بل يمتد إلى الآخرة حيث يخلد في جهنم وبئس ذلك مصيراً .

﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ ﴾ (النساء : ٩٢)

فالقاتل المتعمد إنما انقطع عن نفسه حبل الايمان ، وخرج من حظيرته ، وبدت نفسه الأمارة تقوده إلى الرذيلة ، أما الذي ابتلى بهذه الجريمة ، ووقع فيها خطأ ولم يكن قاصداً إليها أو عازماً على ارتكابها فان نفسه لم تخرج من حظيرة الايمان بعد ، ولم تتسلط عليه القوى الغضبية ولا الغواية الشيطانية ، لأن ما حدث كان ابتلاء من الله له وهو تجربة واختبار لهذا العبد لذلك فان العقوبة في هذه الحالة تكون أقل كثيراً ...

وهكذا نجد التشريع الاسلامي يتدرج في القصاص للمنحرفين عاملاً على تقويم أنفسهم واصلاح اعوجاجهم بحسب حالة النفس وقابليتها للعلاج ، فان كان الجلد يجدي في حالة السكر في علاج رعونات النفس فان قطع يد السارق هو العلاج الناجح ، والجلد

وقطع اليد لا يجيدان في اصلاح نفسية القاتل المتعمد أو علاج حالته لذلك لا بد من اقامة حد القتل عليه لمصلحة الناس والمجتمع جميعاً .

وإذا كان القتل بدون وجه حق من أعظم الرذائل وأن القصاص من المجرم القاتل لا يقتصر على الحياة الدنيا بل يمتد إلى الحياة الآخرة حيث يخلد في نار جهنم ، فان القتل الذي أمر به الشارع وحث عليه من ناحية أخرى يعد عملاً طيباً يثاب عليه المرء إذا ما قام به .

وإذا كان القتل المتعمد الموافق لهوى النفس الأمارة والغواية الشيطانية ... مرض نفسي يجعل صاحبه عدو الله والناس ، فان المقاتل في الله يعد مجاهداً وإن مات فشهيد ، أما إذا تخاذل عن قتل عدو الله ، أو تقاعس عن الدفاع عن وطنه ودينه ، فانه يكتب مع المنافقين الجاهلين ويحق عليه القصاص في الدنيا والآخرة ...

فالقتل يعد جريمة إذ تبع الهوى بل من أفحش الكبائر ، كما يعد عدم القتل جريمة كبرى إذا كان فيه عصيان للأمر الالـهي ... والمدار هنا على النفس ، إذ النفس الطائعة لله تقتل لا رغبة في القتل إنما تنفيذاً على كره لأمر الله ، أما النفس الأمارة فتقتل تنفيذاً لأمر الشيطان وشتان بين الأمرين :

﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم** ﴾ (البقرة : ٢١٦)

﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾

(النساء : ٧٦)

إن موقف النفس من الأحداث الجارية في الكون والحياة

والمجتمع يترتب عليه الجزاء والثواب ـ والقصاص والتفضل الالـهي ...

وبالمثل فالزنا يعد فاحشة وكبيرة بينما النكاح يعد خيراً ومثوبة كذلك القتل يعد جريمة بينما القتال في سبيل الله يعد خيراً يثاب عليه صاحبه بينما التخاذل عنه جريمة يحاسب عليها المتخاذل .

هناك إذن مواقف أربعة للنفس :

الأول : موقف النفس الأمارة وبواعثها الهوى والغواية الشيطانية .

الثاني : موقف النفس المؤمنة الطائعة وارادتها موافقة لله مجاهدة في سبيله .

الثالث : موقف النفس الكذوب : وهي مرائية غير طائعة تستظهر غير ما تبطن .

الرابع : موقف النفس الصابرة : مثل موقف ولدي آدم :

﴿ لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ﴾

(المائدة : ٢٨)

وخلاصة القول أن القصاص بدني ونفسي والنفس منه أعظم غوراً وأصلح لعلاج أمراض النفس فضلاً على أنه يمتد في الدنيا إلى الآخرة ولذلك يسعى المذنب إلى التوبة والقاتل إلى الندم ـ ويستغفر الآثم خوفاً من وعيد الله ورجاء في وعده تعالى وبهذا يختلف القصاص في الاسلام عن العقوبات في الأنظمة والقوانين المختلفة الغربية منها والشرقية ويتفوق عليها جميعاً في ردع الجاني وعلاجه نفسياً واجتماعياً وخلقياً وبذلك يتحقق الأمن في المجتمع وفي النفس جميعاً .

وظيفة الطبيب المــربي

ومن الطرق العديدة التي استخدمها الطب النفسي الاسلامي في علاج الطالبين العلاج بالاضداد[١] .. وهي طريقة فريدة تسد المنافذ على هجوم الأمراض والنقائض والآفات النفسية .. كما انها في نفس الوقت تعاون على جلب الفضائل والأخلاق القويمة .

والطريقة المثلى لاستخدام هذا العلاج تظهر في توجيه المربي طالبه إلى السلوك العلمي الواجب اتباعه ضد ركون النفس إلى الحظوظ والتكاسل عن القيام بالحقوق ، وطلب التخفف من الأعباء . وولوج الأبواب اليسيرة ، والمنافذ السهلة التي لا تحتاج إلى كثرة معاناة أو تعجب أو عنت .. ومن هنا يدخل الرياء والكذب .. وكل ما من شأنه أن يفسد على النفس صحتها ويوقعها فريسة للأمراض ..

لذلك يتبع أطباء النفس الاسلاميون أسلوباً عملياً في العلاج . فمثلاً إذا تلبس على انسان أمران ، لا يعرف على الحقيقة أيهما جدير بالاتباع . إذ عليه أن يفاضل بين الالتحاق بالدراسات العليا بجامعة أو معهد ليزداد علمه وتحصيله أو يسعى للعمل لتلبية احتياجات بيته وأولاده ..

ويحتار الشخص العادي في الأمر .. وربما يصيبه القلق ، ويعتصر . الألم ، وتندفع إليه الهواجس ، فهو يميل من ناحية إلى

---

(١) استخدمنا هذا المصطلح مما استخلصناه من كلام الائمة في علاج النفس مثل الغزالي في الاحياء والمحاسبي في الرعاية .

زيادة عمله ليرفع مستواه الأدبي والاجتماعي .. وهو من ناحية أخرى يريد أن يلبي مطالب أسرته واحتياجاته الضرورية من مأكل ومشرب ومسكن .. كما أن عليه أن يسعى لعمل إضافي يرتزق منه ليزيد دخله وماله .

والقاعدة العامة التي يحكم بها الشخص العادي في هذا الأمر أن يرى ما هو أنفع له وأكثر فائدة عنده .. فيتبعه .. وربما كان ذلك ليس بحق على المدى البعيد ، وإنما اختياره تم عن هوى في نفسه ..

ينصح بعض الأئمة الطالب في هذه الحالة أن ينظر إلى الأمرين نظرة فاحصة ليهتدي إلى اثقلهما على النفس فيتبعه لأنه لا يثقل عليها إلاّ ما كان حقاً وصدقاً[1] .

فالنفس تميل دائماً إلى الأخف والأسهل والأيسر ، وتبتعد عن الأشق والأعسر والأثقل ..

ولذلك فان مخالفة حظ[2] من حظوظ النفس هو الأولى بالاتباع ، لأنه ضد انحرافها مما يحقق للطالب فائدة أعظم ، ونتيجة أثمر ..

ليس معني اتخاذنا موقفاً محدداً ضد حظوظ النفس يصلح لكل حالة ، انما ذلك تأييداً لقاعدة اسلامية أساسها أن النفس لا تصدق .. ومع ذلك فلابد أن تتخذ الوسيلة العلاجية حسب ظروف كل طالب وشخصيته ، وعمله وماله ، فما يصلح لطالب ربما لا يصلح لطالب آخر .. الا أن الأصل في العلاج بالاضداد

(١) الشرنوبي ـ شرح الحكم العطائية ص ٨٢ .
(٢) المصدر اسابق ـ ص ٨٢ .

واحد .. إذ أنه لابد من معيار يتبعه الطبيب ، ولو أن لكل مرض دواء ، ولكل مريض ما يناسبه من علاج لتحقيق الشفاء ..

والطبيب البشري لا يستطيع أن يعالج المريض بالسخونة إلاّ إذا عرف درجة حرارته ويفحص سائر بدنه ، كما أن عليه أن يعرف بيئته وعمله .. فلربما ارتفاع حرارته أو انخفاضها راجع إلى طبيعة صناعته أو مناخ بيئته ، أو نواح أخرى إجتماعية ..

وبالمثل بالنسبة للعلاج النفسي ، فلا يقتصر على نمط واحد من العلاج ، أو على نوع واحد من الرياضة النفسية ، يعمم على كل طالبي العلاج ، فلربما اتبع المعالج طريقاً معيناً كان من أسبابه أن تتلف نفسية الطالب وماتت في نفسه الرغبة في الشفاء وذلك من كثرة الأوامر والنواهي .. إذ يجب أن ينظر المعالج إلى حال المريض وسنه ، ومزاجه ، وعمله ، وما يمكن أن يحتمله ، وما لا يحتمله من تجارب .. وهذا رهن بقدراته واستعداداته قبل أن يبدأ في العلاج ..

ويستخدم بعض الأئمة[1] مقياسا آخر لطالب العلاج ، فمثلاً في المثال الذي سقناه ينصح الطالب أن يضع نفسه في حال الموت .. ثم يتساءل :

أى من الأمرين أفضل سعادة له .. عندما يكون بين يدي الله .. أو ما الذي يسعده أن يقبل به على الله .

طلب زيادة في العلم ..

---

(١) مثل الامام ابوطالب المكي صاحب قوت القلوب وابوحامد الغزالي صاحب الاحياء والحارث المحاسبي صاحب الرعاية لحقوق الله .

أم .. الزيادة في المال ..

فاذا وجد أن ما يسعده عند ملاقاة الله هو زيادة في العلم ، فلا شك أن اختياره هو العمل الصالح .. وهو الحق الواجب الاتباع .. وليس هذا الا امتحانا عسيرا للنفس ، يكشف عن باطنها ، ويظهر حقيقتها ، ولا يحتاج هذا الأمر إلى طول تأمل ، أو كثرة تفكير .. إذ أنه ضد الهوى النفسي فحسب ..

والانسان لا يصدر حكماً في هذه الحالة باطلاً .. وإنما هو يهتدي إلى العمل الصالح الذي لا رياء فيه ، الخالص من شوائب المادة .. لأنه في موقف يقتضي قصر الأمل في الدنيا وزخارفها وزينتها ، لذلك فالموقف الذي يختاره في هذه الحالة هو أصل حسن العمل .. في الدنيا والآخرة ..

والنفس كطبيعة لا تصدق في طلبها ، وإنما غايتها أن تحقق ما فيه لذتها وما يستجلب ــ في زعمها ــ منافعها .. لذلك .. فان العمل بضد هواها هو الطريق إلى الصحة النفسية ..

وإذا مثلنا النفس بالطفل الصغير .. فانه اذا لم يؤدب ويخالف في طلب ما يظن أن فيه لذته .. إنقاد إلى أهوائه .. وافسد نفسه من حيث يظن أنه يعمل لخيرها ، ولذلك فان المربي يلزمه بأمور عليه أن يتبعها مع علمه أنه يشق عليه القيام بها ، وربما بكى الطفل وقاوم ما أمر باتباعه .. لكنه عندما يبلغ الرجال يتبين له أن ما أمره المربي كان لنفعه وصالحه ..

ولذلك وجب على الطالب أن يعرف نفسه ، ويسعى للمحافظة عليها ، ولا يتم ذلك باشباع حظوظها ولذاتها فحسب ،

وإنما بزيادة صفائها وجلائها ، وسد أبواب النقص الذي تعانيه .. فيعالجها من الجهل بمزيد من التعلم ، ومن الكبر بالتواضع ، ومن الأنانية بالايثار والتضحية ، ومن حب العدوان بالصفح والتسامح ومن الشره بالتعفف ، ومن البخل بالكرم والسخاء .

وعليه أن يتحمل مخالفة طلبات النفس ، ويسعى إلى الدواء الشافي ، فيأخذه رغم مرارته من أجل اصلاح نفسه ، ويصبر على تجنب الشهوات ليسمو على المطالب النفسية الزائلة ..

وهذا العلاج النفسي عن طريق اتباع المضادات .. ليس سلوكاً عملياً صالحاً من أجل الصحة النفسية في الدنيا فحسب .. بل أنه يتعدى ذلك إلى الحياة الآخرة ..

فمريض الجسم إذا لم يعالج من أمراضه واسقامه .. فلا شك أنه يتخلص من مرضه بالموت .. فمهما استمر المرض ، فسيأتيه الموت إن آجلاً أو عاجلاً .. ليخلصه من أوجاعه وآلامه ...

أما مريض النفس ، فان مرضه يدوم بعد الموت ، لأن نفسه لا تزول بزوال الجسم وإنما تبقى على حالها من الصحة أو المرض .. وهذا هو العذاب المقيم ..

ومن غرائب السلوك الانساني أن النفس إذا نصحت بالتخلي عن الأعمال الفاسدة والتحلي بالأخلاق الصالحة .. وامتثلت للأمر كرهاً منها ، فانها تسرع إلى نوافل الخير من صيام وقيام ، ومن ناحية أخرى تتكاسل عن القيام بالحقوق الواجبة والسنن المقررة ، التي لم تؤدها ، كدفع ظلم شاركت فيه ، أو اتمام عمل لم تستوفه أو استيفاء دين لم تؤده .. أو فرض لم تقم به ..

والنفس التي هذا حالها .. تقبل على كل عمل خفيف ، وتتكاسل عن كل عمل تراه ثقيلاً ... وهي تستهدف من ذلك الظهور أمام الناس فحسب بمظهر التكامل لينسب إليها الفضل والعلم والتقوى والورع .. وتذكر عند الناس بالطيبة والصلاح ..

فالنفس في بداية توبتها تنسى الأصل وتهتم بالمظاهر والزخارف والأشكال والرسوم وإذا ظنت أن اتيان الفضائل أهم من الفرائض والواجبات فهي مخدوعة ، حيث تظن الصدق ، مرودة حيث تأمل القرب ..

والله تعالى خالق النفس الانسانية ، عالم بسرها وجهرها ، كما ذكر في كتابه الكريم ، فمن طبعها الميل إلى التسويف في العبادات ، والرغبة في تأجيل استيفاء الحقوق ، لذلك ألزمها ـ سبحانه ـ بطاعته ـ مصلحة لها ـ وأمرها بتأدية الفرائض والحقوق في مواقيت حددها تعالى ، خوفاً من تخاذلها وتسويفها .. ولو لم يفعل ذلك تعالى . لهلك كثير من الخلق بارتكابهم أهواء النفس .. ونسيانهم ، وتغافلهم عن تأدية ما فرضه تعالى من الواجبات والتكاليف .. وهذا من حكمة الله .. العليم الخبير ..

لكن ليس معني ذلك أن جميع الناس يساقون إلى القيام بواجباتهم ، وهم مكبلون بسلاسل الطاعة ، إذ أن هناك نفراً من الناس قد صدقت توبتهم ، وخلصت نياتهم ، واحبوا طريق الله ، وعملوا جاهدين على سد منافذ الشيطان ، وخالفوا حظوظهم الدنيوية ..

فهم لا يحتاجون إلى التخويف والترهيب والتحذير .. لسيرهم

في طاعة الله ، ولاشراق قلوبهم بنور المحبة الالـهية .. فهم يؤدون الواجبات ، ويقومون بالفرائض والتكاليف بنفس راضية ، وقلب سليم كما أنهم يضيفون إلى ذلك أعمال البر ، ونوافل الخيرات ، حتي صارت أعمالهم قربات وقربات ..

والحب من خصائص النفس الانسانية ، وربما تحب شيئاً وفيه شرهاً ، وربما تكره شيئاً وفيه خيرها .. وما أحبت النفس شيئاً الا وكان صاحبها عبداً ينقاد إليه .. ويعمل لارضائه .. الا أن الله تعالى لا يجب أن يحب غيره ، ولا يرضي عن الغافل عنه ، الذي غررته الأماني ، غره بالله الغرور ، وفي ذلك يقول بعض الائمة[1] :

« إنك لن تكون على الحقيقة عبدالله وفيك شيء مازال مسترق (عابد) لغيره وانك لن تصل إلى الحرية ، وعليك حقوق لله في عبوديتك .. فالمدين مديناً ما بقي عليه درهم .. ومحبة الشيء تلزمه العبودية له .. فاجعل محبتك خالصة لمن تلزمك عبوديته .. »

(١) الشرتوني ـ شرح الحكم العطائية ص/٨٢ .

الفصــل الخــامس
نماذج من السلوك الانساني في القصص القرآني

يبدو للمتأمل في القصص القرآني ، أنها ترسم شخصياتها من خلال المواقف دون أن تركز على الشكل الخارجي أو الصور الظاهرة . وهذا يجعل الشخصية أكثر وضوحاً وجلاء لاستبعاد الجزئيات والتفصيلات التي ربما تثير القارىء لكنها لا تفيد علما ، بل أن وصف الشخصية وصفاً خارجياً إنما هي ثرثرة وتعقيد يبعد القارىء عن اكتساب العبرة والتقاط المفاهيم التي تهدف إليها القصة والعظة من سردها ، وهي تجعل الغموض أو «العقدة» هدفاً من أهدافها .

فالقصص الانساني يطيل في وصف المظهر والشكل والأبعاد وكثيراً ما يغفل المضمون أن العبرة أو يلقي بها إلى القارىء أو السامع أو المشاهد ليفهمها كما يشاء ، كما أن كثيراً من القصصيين يستخدمون الرمز أو المجاز للتشويق أو للاثارة .

كذلك فان القصص الانساني غالباً ما يبالغ في رسم شخصياته فتصبح أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع ، أو يضيف صوراً ومواقف هزلية أو درامية أو ساخرة تفسد الواقع وتشوه حقيقته ، وهي بذلك ربما تنتزع من الناس بعض ضحكاتهم وبكائهم الا أن ذلك

٦٩٣٠فليس دليلاً على تغذية العقل أو القلب أو النفس بما يفيد بل ربما يعكس ذلك على القارىء أو السامع أو المشاهد مواقف اللا مبالاة أو العناد أو التمرد والانحراف حيث أن نقل هذه الشخصية أو تلك بصورة غير واقعية تخلق في النفس حالات القلق والتوتر والخوف والغضب والعدوان نتيجة للمشاركة الوجدانية التي كون فيها القارىء أو المشاهد ملاحظاً وبلاحظاً في آن واحد . خاصة تلك التي تنتهي دون حل مرض للقارىء أو السامع .

أما القصص القرآني فانه لا يستهدف الاثارة أو الغموض في الموقف «الدرامي» بقدر ما يستهدف الصدق في نقل الوقائع والأحداث ثم تبيان النهاية المظلمة للأشرار والنهاية السعيدة للأخيار .

والعرض في القصص القرآني يمتاز عن الانساني بأنه قادر أن يمتد لتشمل أحداثه ووقائعه الناس جميعاً لأنه يعتمد على مواقف وتلك المواقف يلعب أدوارها الناس كل الناس بشكل أو بآخر .

فقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز يمكن أن تكون وقائع لأحداث يومية متكررة في بلاد الدنيا كلها مع اختلاف في المواقف والسلوك وهذا الاختلاف هو ما يرمي إليه القصص القرآني من عبر وعظات أو يظهر الضعف الانساني كما يبين أن هذا الضعف المجبول عليه الانسان ممكن أن يتحول إلى قوة هائلة لو أن الانسان اعتمد على الله واسلم له القياد وأخلص له الطاعة والقنوت ...

كما يظهر القرآن الشخصية الشهوية التي تلعب دورها زليخة امرأة العزيز وبدون رسم صورتها الخارجية فان السامع أو المشاهد أو

القارىء يستطيع من خلال المواقف أن يتفهم شخصيتها جيداً ويتعرف على نزعتها وميولها .

فهي امرأة تملك جاهاً ومالاً وقوة وتحمل نفساً مغترة غرورة فضلاً عن نشوزها ، وهذا يتضح من ضعف موقف العزيز الذي وافقها على سجن يوسف[1] رغم براءته التامة بشهادة أهل البيت كما يبين إلى أى حد كانت زليخة امرأة متجبرة ومسيطرة ، وسنحاول في هذه العجالة أن نحلل شخصيات القصة كما رسمها لنا القرآن الكريم ، دون أن نتعرض للأحداث التاريخية وسرد وقائعها حيث أن ذلك ليس موضوعنا .

يوسف عليه السلام :

طفولة يوسف عليه السلام تنم عن شخصية مجتباه ، علمها الله تعالى من لدنه علما ، ويظهر هذا منذ أن كان صبياً صغيراً يرى الرؤى المتحققة الصالحة والصادقة ، ثم يمتحن بالابتلاءات كما يمتحن الله النبيين جميعاً بها فيصبروا ويجاهدوا ويخلصوا العمل والعبادة حتي يمن الله عليهم من فضله ويرفعهم مقاماً محموداً ...

كان يوسف فتي ربانيا ، طائعاً لله ، راضياً بما قسمه له ، متوكلاً عليه بالكلية ،، فلم يفعل ما يفعله الأطفال في سنه عندما يفقدون ذويهم ويتعرضون للمصائب ، وهذا واضح عندما التي به اخوته في الجب ، ولم يتعرف عليه أحد من شكاته أو بكائه وانما حدث ذلك بتدبير الـهي وأمر رباني ... وكأن الطفل الصغير قد ألهم

(١) عبد الوهاب النجار ــ قصص الانبياء .

بالحق . واشرقت نفسه بالمعارف . فترك نفسه لله يدبر له أمره ويخطط له مستقبل حياته ... وكان فضل الله عليه عظيماً . إذ نشأ يوسف في بيت عزيز مصر ثم انتهى به الأمر ليكون وزيراً ... لكن ما حدث له من اغواء وسجن لم يكن الا اختبارا وامتحانا وتجارب في الحياة كانت كلها لصالحه .

كيف يمكن أن تعرف منزلة يوسف وطهارته وتقواه وورعه الا عن طريق المواقف . فتشغف به امرأة العزيز لدرجة استخدام المكر والحيلة لتناله . فيترفع عن الشهوة الرخيصة . ويسمو عن السلوك المنحرف . ويستعيذ بالله أن يفعل الفحشاء . ويقترف الاثم ... رغم ما يمكن أن يتعرض له من عنت وضيق وتهديد ووعيد وسجن وتعذيب ...

إن نفس يوسف طاهرة طهور ولم تتغير مواقفه من الاستقامة والعفة رغم أن الامتحانات العسيرة التي لا يستطيع أن يتحملها الا النبي المعصوم ...

لم تكن زليخة تتوقف عن تهديده . ولم تراوده عن نفسه مرة أو مرات بل دأبت على ذلك قبل تمزيق قميصه في الواقعة التي ذكرها القرآن تفصيلاً وفي الوقائع التي حدثنا بها تضميناً . يقول عز من قائل على لسان امرأة العزيز بعدما فشلت في مراودته وبعدما جمعت النسوة فقطعن أيديهم حباً وشغفاً :

﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل مآ أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين﴾

لو كانت هذه الواقعة قد حدثت مرة واحدة . لكان هم

يوسف كهم أمرأة العزيز ممكناً ، نتيجة للمفاجأة والمباغتة ، لكن إمرأة العزيز دأبت على مراودته كما سبق القول ، بل وكشفت عن رغبتها الشهوية فيه وأعلنت ذلك جهراً جهاراً ولم يهمها عواقب ذلك ، فقد استحكمت في قلبها ونفسها وعقلها الشهوة ، ووجدت لسلوكها هذا الشاذ مبرراً الا وهو عدم قدرة أى من النساء التي جمعتهن أن تتعفف أو تصبر في ذلك الموقف ، بل قلن جميعاً وهن في ذهول عقلي أمام الجمال الصارخ :

﴿ **حاش لله ما هذا بشراً إن هذا الا ملك كريم** ﴾

إذن راودته امرأة العزيز عن نفسه مرات ومرات وفي كل مرة ينسلخ منها ، ويتهرب من مطاردتها ، ولذلك غلقت الأبواب ، واحكمت خطتها ، بعد ما فشلت كل الوسائل الأخرى ... بل انها عندما فشلت هذه المرة وقد فقدت كرامتها وعزتها ، لم تيأس من نواله . ولم تكف عن مطاردته رغم فضيحتها في البلاد وعلى السنة العباد [1] ...

لو كان يوسف عليه السلام قد هم بها ليوافقها في رغبتها . ما حدثت كل هذه الضجة .. وكان قد تم ذلك سراً ... لكنه النبي المجتبي المعصوم ، الذي كان يعتبر هذه المطاردة العنيفة ابتلاء وكان يجابه هذه المواقف بصبر وجلد وحكمة ، وبعزم صادق وارادة حديدية في الا يقع في الفاحشة ، أو تقهره هذه المرأة الشيطان فيقع في الفاحشة ، إن هم يوسف عليه السلام إذا كان هم بسيئة لكان

(١) عبد الوهاب النجار ــ قصص الانبياء ص/يوسف .

ذلك يتوافق مع النية ويوافق العزم ويواكب الارادة حتي يتم العمل أو اتيان الفعل[١] . لكن الهم لم تتبعه النية والدليل على ذلك أن عزمه أنصرف عن اتيان الفحشاء وارادته انعقدت على رفع هذه الغواية وانتهى بهالأمر إلى الفعل أو العمل وهو هروبه من المرأة التي تريده لنفسها جبراً ..

أين إذن شخصية يوسف عليه السلام من شخصية زليخه ، هذا عبد رباني ، عاش عمره في طاعة الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وطهره ظاهراً وباطناً ، فكيف يقدم وهو شخصية آمنة مطمئنة في حجر الرحمن إلى اقتراف الفاحشة ..

إن أصحاب التحليل النفسي يقولون أن سمات الشخصية تظهر في الثماني سنوات الأولى من حياة الطفل[٢] ، ويقول سيجموند فرويد : أعطوني طفلاً عنده ثماني سنوات وأنا أتنبأ بشخصيته عندما يغدوا رجلاً .

لسنا نؤيد هذه النظرية من قريب أو بعيد ، إذ أن هناك تغييرات يمكن أن تحدث للطفل في المراحل المختلفة من العمر ، كما أن هناك من الظروف والملابسات ما يساعد على هذا التغير سواء إلى الأفضل أو الأسوأ .. بيد أن الذي يهمنا هنا أن شخصية يوسف كانت في مراحلها المختلفة نقية تقية طاهرة رغم كل الابتلاءات والمصائب التي تعرض لها في حياته ، ولو كان طفلاً آخرا لتغيرت شخصيته مع

---

(١) ابوطالب المكي ـ قوت القلوب جـ/١ ص/٢٥٧ وما بعدها .
(٢) سيجموند فرويد ـ التحليل النفسي ـ ترجمة سامي محمود

ظروف إلقائه في الجب وسبيه وبيعه إلى آخر ما حدث الا أنه كان نبياً كريماً رفض الخضوع لسيطرة الغرائز البشرية ، والهبوط إلى الشهوة البهيمية ، وموافقة الأهواء النفسية التي جبل عليها الانسان ، وهو يمقت أن يخون الأمانة ، ويكره أن يزني بامرأة سيدة الذي رباه صغيراً ورعاه يافعاً ...

لقد كان طريق الشهوة معبداً ليوسف ، وزليخه شابة رائعة الحسن طاغية الفتنة ، تمتلك من أسباب الدنيا ما لم تملكه امرأة في زمانها ، وهي سيدة القصر التي لا يرفض لها مطلباً أما يوسف فقد كان أجيراً وعبداً لها لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة ، لكنه مع ذلك واقف صامد يجابه وحده كل المواقف ، يرفض باصرار كل المغريات ويصارع خصماً عنيداً لا يستسلم أبداً ، بل يريد أن يحقق شهوته ولو عذب غيره أو سجنه أو دمر كل ما حوله .

صراع بين الهوى والاستقامة ، بين الشيطانية والربانية ، فلا يعني أن يوسف معصوم أن لا يكابد ولا يعاني ولا يقع في المحن والخطوب فالأنبياء أشد الناس ابتلاء ، لكن العبرة بالنهايات وهذا ما يختلف فيه الأنبياء عن سائر البشر.

زليخة امرأة العزيز :

تتميز شخصية امرأة العزيز كما تظهرها الآيات البينات بالغرور والعجب بنفسها ، وذلك لاعتقاد واهم أن باستطاعتها الحصول على أي شيء والوصول إلى اشباع رغباتها ولو كان ذلك مستحيلاً لغيرها من النساء . وفي نفس الوقت تتحدى أي امرأة تستطيع أن

تماسك أمام يوسف عليه السلام .

ولقد كان العزيز زوجاً ضعيفاً . منقاداً لها . منفذاً لأهوائها . محققاً لرغباتها . ولو كان ذلك على حساب الحق والعدل والشرف . وهذا الخنوع الذي اتسم به خلال الأحداث التي كان بطلها يوسف عليه السلام . يدل دلالة واضحة على الضعف الانساني وأن الدنيا لا تتحكم فيها غالباً الحكمة والتعقل وإنما تحكمها العاطفة والرغبات الشهوية والنزعات الغضبية والعدوانية [1] .

لقد قاد إمرأة العزيز غرورها ومرض نفسها إلى الجهر علناً بدوافعها الغريزية وشغفها المطلق بيوسف عليه السلام . ولم تأبه بنقد النساء والتشهير بها في المدينة . بل تحدتهن لتبين لهن أنهن لا يستطعن مقاومة اغراء يوسف مهما أظهرن من عفاف وشرف وكرامة زائفة ...

فقد النسوة عقولهن عندما أمرت يوسف عليه السلام بأن يمر عليهن . وفي غمرة الاشتهاء والرغبة الخفية نسين أنفسهن وقطعن أيديهن بالسكاكين التي اعدتها لهن . وكأن امرأة العزيز لغرورها وعجبها بنفسها تعلم كأنثي أنهن من المستحيل أن يتماسكن أمامه وذلك لكمال شخصيته ونور انيته فقلن في وصفه :

﴿حاش لله ما هذا بشراً إن هذا الا ملك كريم﴾

لم يقتصر هذا الحب الشبقي على امرأة العزيز بل انتقل كالعدوى بين النساء في المدينة وأصبح حديثهن الشاغل يوسف عليه السلام .

---

(١) يتضح ذلك للمتأمل في قصة يوسف كما وردت عن الله .

ولقد منحن العذر لامرأة العزيز لشغفها بهذا الملك الطاهر الذي لا يشبه الانس في جماله الأخاذ بالقلوب وشخصيته المشرقة بالنور الالـهي ... لذلك وجدت امرأة العزيز لنفسها مبررات اوكد واقوى في الظفر بيوسف مهما كانت الظروف ولو أدى إلى مطاردته وسجنه وتعذيبه ...

من هذا الموقف يتضح لنا كيف يمكن أن تسلك المرأة اللعوب إذا تملكها الهوى واستعصي عليها أن تشبع نهمها الشبقي ، إذ تتصرف تصرف الحيوان الأعجمي وتسلك طريق الشر والعدوان ، وتكيد لمن تحب كيداً فينقلب العشق المفقود سلاحاً في يدها تدمر به المحبوب وتحيل حياته عذاباً وتعاسة وشقاء[1] ...

كان موقف امرأة العزيز موقفاً صعباً على أى امرأة ، إذ تحطم فيه كبرياؤها . وعرضت على يوسف انوثتها الطاغية فلم يستجب لها . وسخر من جمالها وفتنتها التي يتضاءل أمامها عزيز مصر ... ومع كل ذلك تبعته وجرت وراءه وامسكت بقميصه راجية متوسلة ، لكن محاولاتها كلها باءت بالفشل الذريع .

ويمكننا الآن أن نستخلص من تحليلاتنا للمواقف النفسية في قصة يوسف مع امرأة العزيز النقاط الآتية :

١ ـ إن النفس الانسانية إذا ما وافقت الهوى ، وانقادت لغواية الشيطان ، ظلمت وأظلمت ، ووقعت فريسة للقوة الغضبية الطائشة إذ لم تحقق شهواتها ولذاتها العاجلة ، في مقابل القوة

(١) مرضي النفس في تطرفهم واعتدالهم ـ د . محمد فرغلي تقديم د . مصطفى سويف ص/١٧١ ـ ١٧٢ .

الشهوانية في الجبلة الانسانية توجد القوة الغضبية التي يمكن أن يستخدمها الانسان كبديل للشهوة . إذ أن القوتان الشهوانية والغضبية من أصل واحد وهو النار أو النارية (١) . ولذلك فان الغضب المحموم يمكن أن يكون بديلاً للشهوة المحمومة . كما يمكن أن يرتبطا معاً في موقف واحد بالنتائج . وهذا ما نجده في الحقد الأسود الذي لا يقف عند حد الغضب ثم العدوان وسفك الدماء بل يتعدى ذلك إلى التمثيل بالجثة . ويشعر المعتدي بلذة كبيرة في تشويهها . أو امتصاص دمائها ولربما فعل الفحشاء بها بعد موتها ...

وهكذا نجد موقف امرأة العزيز ارتبطت فيه الشهوة البهيمية بالغضب المحموم عندما فشلت في اشباع نهمها . والظفر بتحقق رغبتها الدفينة ، فغضبت من يوسف ومزقت قميصه ثم توعدته بالسجن والعذاب المبين ...

إن إتباع النفس للهوى لا بد وأن يؤدي إلى هذا الموقف الانحرافي وأن أكثر الجرائم تبدأ مع الهوى وتنتهي بالانسان المتبع لهواه إلى ظلم نفسه ووقوعه بين براثن الشيطان . فيصبح له فريسة سهلة يحركها كيفما شاء في الفحشاء وقتل النفس بغير حق ... ولذلك يقول عز من قائل :

﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾

فاتباع الأهواء يقود الانسان إلى الشطط والحمق والاسراف

---

(١) قوت القلوب ـ حـ/١ ص ١٧٤ وما بعدها

والافراط والغلو والابتذال والنذالة والخسة والجنوح والانحراف عن جادة الصواب وبالجملة يؤدي إلى النكوص والانتكاس والضلال المبين[1] ...

أما إذا قاومت النفس الأهواء ، وشعرت عن ساعد الجبر والاجتهاد في مقاومة الغواية والارتفاع عن مزالق الشهوات . واستعانت بالله ربا وناصراً ومعيناً ... وفقه الله تعالى بتسكين الشهوة بالغضب وبذلك تستقيم النفس[2] وتتصف بالحكمة يقول تعالى :

﴿ يؤتي الحكمة من يشآء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾

أما شخصية يوسف عليه السلام ، فانها شخصية غير عادية ، لا تنطبق عليها القوى النفسية المتحكمة في الانسان فكراً وسلوكاً . إذ أن قوتي الشهوة والغضب ساكنتين في نفسه ، وذلك كثمرة للاجتباء الالٰهي والتأييد الرحماني . إذن فلم يكن في حاجة أن يسلط الغضب على نوازع الشهوة ، ولم يكن أيضاً في حاجة أن يسلط الشهوة على الغضب في نفسه ، فقد ارتفع عن ذلك جميعاً إلى ما هو أعظم وأكبر إذ كان مسترسلاً دوماً مع الله ، مستسلماً ظاهراً وباطناً لقيادته تعالى ؛ فنصره على أهواء النفس ودفع عنه غواية الشيطان فسلم من ذلك جميعاً ... وهكذا من خصوصيات الأنبياء عليهم السلام فحسب ...

إن اغراء إمرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، ودخوله السجن

(١) قوت القلوب ـ جـ/١ ص/١٧٥ وما بعدها .
(٢) احياء علوم الدين ـ الجزء السادس ـ كتاب الشعب ص/١٣٨ وما بعدها .

ومكوثه فيه أمداً طويلاً . ثم خروجه منه منتصراً ظافراً ليتولى خزائن الأرض . يدل على أن يوسف عيه السلام قد أعد من قبله تعالى على أن يؤدي رسالة محددة على الأرض يبين فيها أن الله مع لصابرين وانه تعالى ناصر للأوفياء المخلصين الذين لم يخونوا أماناتهم . كما تعبر شخصية يوسف عليه السلام عن القدوة الطيبة التي يتوجب على الانسان الاقتداء بها وهذا واضح من خلال المواقف والوقائع والأحداث .

الأخوة الحاقدون :

إن خصائص النفس البشرية واحدة في كل مكان وزمان ... والتمايز بين النفس والنفس إنما يكمن في قدرة أحداهما بفضل الله على المجاهدة والسعي في طريق الحق والاستقامة في سلوك سبيل الله . أما النفس التي تتقاعس عن المجاهدة وتركن إلى أهوائها وتنزع للتبطل والتكاسل عن اقامة حدود الله والمحافظة على أمره وحكمه ... فانها لا محالة واقعة في الضلال المبين ...

وينشأ عن تكاسل النفس الاعتراض والتحدي والحقد والحسد ويبدو هذا السلوك الشاذ من جانب النفس في كثير من الأعمال والأفعال والقصص القرآني يحكي لنا الكثير من هذه المواقف الشاذة ويظهر سوء عملها والنهاية الظالمة المظلمة التي تنتهي إليها كل نفس أمارة ..

ومن صور الحقد والحسد التي تتميز به النفس الأمارة ما فعله أخوة يوسف عليه السلام به . فقد أوغت صدورهم لحب يعقوب

عليه السلام له ، ويبين من سياق القصة أن يعقوب عليه السلام كان على علم بقلوب أبنائه ، وادراك تمام لهذا الحقد الدفين نحو يوسف عليه السلام ، لذلك فقد نصحه وهو مازال صغيراً الا يقص رؤياه على اخوته خوفاً عليه من كيدهم ... ومع ذلك بيتوا ليوسف أمراً ، وقرروا التخلص منه ظلماً وبهتاناً وافكاً ...

وقد اعلنوا أن سبب كراهيتهم ليوسف عليه السلام وحقدهم عليه هو تفضيل يعقوب عليه السلام ليوسف دونهم ، ولكي تشفي صدورهم من هذا الغل وتسكن نفوسهم من نار الحقد كان عليهم أن ينحرفوا إلى تيار الاعتداء والعدوان واتخاذ طريق الانتقام سبيلاً وما اسوأه من سبيل ..

إن الحقد نار داخل النفس إذا ظهرت دمرت ما حولها واحالت كل شيء هشيماً ، ومع ذلك فان الحاقد لا ينجح في تحقيق مآربه وانما تنقلب دعواه عليه هما وكدا ويعيش حياته يحمل قلباً مريضاً ونفساً شقية تعيسة ..

لم يكسب اخوة يوسف شيئاً في التخلص من يوسف عليه السلام عندما قذفوه إلى البئر ، وإنما تغيرت الأحداث وتحولت لصالح يوسف عليه السلام ثم أن هذا الذي تخلصوا منه في فترة من الزمان ينصره الله ويقعده مقعداً كريماً ، ويجعل الفئة الباغية تحتاج إلى عونه ، وتتوسل إليه للمساعدة ، وترجوه أن يكرمهم ويجود عليهم ..

أما نفس يوسف عليه السلام فقد كانت نفساً راضية مرضية لا تعرف الحق ولا الحسد ولا الانتقام والعدوان ، فلم يشأ أن يرد

عدوانهم بعدوان رغم قدرته عليه . لأن الله ملأ قلبه ايماناً وتسامحاً وعفواً ... فهو وان كان يعرف أن نفوسهم لم يتغير حالها منذ فعلوا فعلتهم الدنيئة معه ... الا أنه لم يحاسبهم على ما يقترفونه من آثام وضلال مبين .. خاصة عندما قالوا له : « ان يكن قد سرق فقد سرق أخ له من قبل » .

إذن مازال الحقد في قلوبهم ظاهراً . ولم تكتتب لهذه النفوس الظالمة التعسة بعد ... ويظهر الله على يد يوسف عليه السلام بعض كراماته فيقول قول الواثق :

﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾

(يوسف ۹۳)

﴿فلما أن جاءَ البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾

(يوسف ۹٦)

هذا هو إذن موقف النفس المطمئنة . يمدها الله بعونه . ويفتح عليها بعلمه ونعمه وأسراره . فقد حدث شيء يعجز العقل عن فهمه وتم بمشيئة الله اتصال بلا أجهزة ولا أدوات بل تم علاج يعقوب عليه السلام بلا عقاقير ولا جراحات ...

أليس ذلك دليلاً على أن الله دوماً مع الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والمحسنين ...

عيسي عليه السلام :

النفس الانسانية لها جبلات هي مكوناتها وفي داخل تركيبها وهي طبائع بها . ولو تركت النفس على حالها بدون تربية أو توجيه

لوجهتها هذه الجبلات وقادت زمامها وانحفت بها عن جادة الحق وطريق الرشد والصواب .

وهذه الجبلات هي قوى نفسية تحركها من الداخل منها القوى الغضبة والشهوانية والشيطانية ... وهذه القوى تقود إلى الادعاء وخاصة ادعاء الربوبية ، كما تدخل في الانسان الرغبة في المدح والثناء وكراهية النصح والارشاد والتواضع والايثار فينشأ عنها العجب والاغترار والتسلط والتجبر والتكبر(١) .

الا أن في الانسان قوة أعظم من هذه القوى جميعاً لو قدر الله أن يستعين بها لرفعته إلى درجة أعلى وفضلاً الانسان بها على الملائكة وهذه القوة الربانية ، والذين يتمسكون بها ويسترسلون معها هم السعداء حقاً في الدنيا والآخرة ...

الا أن من بني الانسان القليل بل القليل جداً من الحكماء .. وهذا راجع إلى التركيب الترابي والطيني والناري في الانسان والذي يطغى كثيراً على فكره وسلوكه واخلاقياته(٢) .. فينسي ويتناسي ويغفل ويتغافل عن القوة الربانية العظيمة المودعة فيه من قبل الله تعالى ... وبذلك يسقط في براثن الشرك والالحاد والظلم والطغيان والضلال العظيم ..

أما الأنبياء صلوات الله عليهم اجمعين .. فقد امتازوا عن بقية الخلق بسلامة قلوبهم واشراقات نفوسهم فقد سخر الله لهم القوة

---

(١) افاض الامام ابوحامد الغزالي في كتابه تنبيه المغترين ـ ذكر طبقات المنحرفين عن طريق الله .

(٢) قوت القلوب جـ/١ ص/١٧٥ وما بعدها .

الربانية لتكون رائدة لهم في جميع تصرفاتهم . وموجهة لهم في كل أفعالهم واقوالهم وأعمالهم ... فسكنت بذلك جبلاتهم وهدأت القوى الشهوية والغضبة ولم تعد الا وسائل تتحرك في خدمة الحق والعدل وعبادة الله ...

أما الصالحون فقد جاهدوا النفس وقواها الشيطانية . واستمسكوا بالشريعة وعراها . واخلصوا لله فأشرقت قلوبهم بالسكينة والأمن ... وعاشوا حياتهم مقتدين بالأنبياء والرسل في اخلاقهم وأعمالهم وكل أمورهم فتحققت لهم العزة في الحياة الدنيا والآخرة .

والمثال الذي يمكن أن نجعله أنموذج الدراسة التي نحن بصددها شخصية عيسي عليه السلام الذي كان حمله وطفولته وحياته ونبوته وموته لا تخضع لأى من التفاسير العلمية الجديدة أى من المناهج الوضعية العقلانية ...

وإذا ما حاول الدارس أن يستعين بالتحليلات النفسية التي تسود عالمنا المعاصر . وطبقها على المواقف والأحداث في ترسم شخصية عيسي عليه السلام لخرج بنتائج وتفسيرات تخالف الواقع والحقيقة ... وربما تنكر وجود عيسي عليه السلام على الاطلاق باعتباره شخصية وهمية اسطورية ...

إن المنهج العلمي الحديث يعتمد في دراسته على العلة والمعلول والسبب والمسبب فاذا لم يتمكن الباحث من ربطها لسبب أو لآخر فسدت تفسيراته وخرجت عن الحق والعدل والصواب . ودليلنا على صدق ما نقول ولادة عيسي غير الطبيعية . فقد حملته وولدته

أمه مريم العذراء بلا اتصال بشري من أى نوع ...

﴿ **قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا** ﴾

(مريم : ٢٠ ـ ٢١)

كما أن التفسير العقلاني لا يقبل أن تكون ولادة عيسي من غير أب . وهذا ما حدث مع مريم فقد شك يوسف النجار التي خطبت له في أمرها ، رغم معرفته التامة بعفتها وطهارتها فقال لها : هل يكون هناك زرع من غير بذر قالت : نعم وهل يكون هناك شجر من غير ماء . قالت : نعم . قال وهل يكون هناك ولد من غير ذكر قالت نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثي ... قال : فاخبرن خبرك : قالت : إن الله بشرني [١] بكلمة منه اسمه المسيح عيسي بن مريم .. فتأكد له طهارتها وصدقها وانها المشيئة الالـٰهية وان الله على كل شيء قدير ...

وكان يوسف النجار من العباد الصالحين ، ولو لم يكن كذلك ما صدقها ، لأن ما حدث لها لم يكن شيئاً طبيعياً فكيف تفسر الأحداث بدون علل ، أوكيف يحدث الحمل بدون سبب مباشر أو علة قريبة .. لقد كان ما حدث لمريم ثمرة علة بعيدة هي المشيئة الالـٰهية ، والانسان العادي الذي تحكمه العادات والسنن الطبيعية لا يمكن أن يقبل عقله هذا التفسير ولا يصدق ما حدث لمريم الا العارفون بالله ، التي اسلمت قلوبهم وعقولهم وجوارحهم لله

(١) عبدالوهاب النجار ـ قصص الانبياء ـ يوسف عليه السلام .

جميعاً . والدليل على صدق ما نقول موقف الناس جميع الناس من مريم وابنها عيسي عليه السلام . فقد اتهموا يوسف النجار واتهموا زكريا عليه السلام وهو زوج اختها بل وطاردوه إلى أن امسكوا به وقتلوه بأن نشروه بالمنشار[1] ...

ولقد أيد الله تعالى عيسي عليه السلام بسلسلة من المعجزات المدركة حسياً حتي يظهر الله للناس قدرته وعلمه وآياته .

﴿ فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا . قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ﴾

حمل عيسي كان غير طبيعي بالنسبة للناس وكذلك كلامه وهو في المهد ثم تتوالى المعجزات كأحياء الموتي ... ورفعه إلى السماء ..

وفي كل معجزة من تلكم المعجزات يشك الناس ويزداد شكهم لأنها مخالفة لعوائدهم . وأعلى في تفهمها من مستوى تصوراتهم . لا تدركها عقولهم ولا تصل إلى تفسيرها أذهانهم ... ولو كانوا مؤمنين حقاً لاسلموا أمرهم لله وقالوا إن الله على كل شيء قدير ...

لكن نفوسهم بما جبلت عليه من شهوات وما أودعت فيها من قوى غضبية وشيطانية ، قد رفضت باصرار الاقرار بنبوة عيسي والاذعان للمشيئة الالٰهية . لقد شحنت هذه النفوس بالحقد عليه والرغبة في العدوان على شخصه ، وأثاروا الفتنة واوغلوا صدر الملك باعتباره منافساً له في الملك ... فطاردوه الا أن الله اعمى ابصارهم فقتلوا الشبيه وهو يهوذا الذي أرشدهم إليه .. وهذه

---

(١) الصابوني ـ قصص الانبياء ـ يوسف عيه لسلام .

معجزة أخرى ....

والنبي أكثر الناس ابتلاء لكن الله ينصره في كل حال ويثبت قدمه ، ويظهر كلمة الحق ويزهق الباطل ... ليكون ذلك عبرة للعالمين ..

لقد اختلفوا في أمر صلب عيسي عليه السلام ، فالواقع يكذبه والنبوة تدينه لكنها النفس لا ترضي بمنطق العقل حين يخالف الهوى ولا ترضي بالايمان مادام يحد من طغيان الشهوات .. وهكذا يرفض الانسان التحكيم إلى العقل حيناً والرجوع إلى الله حيناً وهذا حال غالبية الناس ، وقصة عيسي عليه السلام تبين جحود الانسان وكنوده وظلمه لنفسه اذا ما كفر فيحيا حياة الشك والريبة والرجفة وساء ذلك مصيرا .

لـوط عليه السلام وقومه :

كانت مدينة «سدوم» شرق الأردن يشتهر أهلها بالفجور واتيان الفحشاء التي لم يسبقهم فيها أحد من العالمين ، فقد كانوا يأتون الذكران دون النساء حتي سمى هذا الفعل باسمهم «اللوطية» وهي المثلية الجنسية[1] .

نزل لوط بأمر إلٰهي إلي هذه المدينة الفاجرة الظالمة فوجد هذا الفعل الفاحش ينتشر انتشار النار في الهشيم فيقضي على مكارم الأخلاق ويشيع الفساد والافساد ، ويدعو إلى العهر والبغي ويميت

---

(١) الصابوني ـ قصص الانبياء ـ لوط عليه السلام .

في النفوس الشهامة والكرامة . ويفتت سياج الأسرة والمجتمع جميعاً ...

نبي كريم جاء يدعو إلى الله فيجد قوماً هم اراذل الناس واحطهم دناءة وخسة وفقاً .. فالخنزير من دون الحيوان هو وحده الذي يأتي الأنثي بهذه الصورة ويدفع انثاه لذكر آخر ليفعل بها[٢] ..

فاللوطي ينطبع بطبع الخنزير في الحصول على اللذة بأى طريق وهذا يفقده الغيرة التي يتميز بها كل ذكر للمحافظة على أنثاه .. أو نسميه الدفاع عن العرض ففاقد الشيء لا يعطيه . فمادام اللوطي تقوده الشهوة حتي تصبح غايته الوحيدة التي يود اشباعها فلا مانع عنده من التنازل عن شرفه والتفريط في عرضه وإذا لم يتحقق له ما يصبوا إليه من اشباعات بهيمية ومنع عن ذلك برزت القوة الغضبية لتعتدي وتقترف الجريمة بكل صورها وهذا ما كان يفعله قوم لوط .

ترتبط القوة الشهوانية في النفس بالقوة الغضبية . إذ تقترن اللوطية كشهوة شاذة جامحة بالرغبة في التعذيب أو سفك الدماء إذا ما فشلت . وهذا نوع من الانتقام يجد فيه اللوطي لذة أخرى ويسمى ذلك حديثاً «بالسادية» .

هذا الشذوذ الجنسي من مصدر شيطاني وأهواء نفسية مرضية . تعاند الفطرة السليمة ، وتتحدى السنن . وتخالف الحق وتميل إلى الباطل وتشيع الفساد في كل شيء فاذا ما شاعت بين

---

(١) ابن الجوزي ـ دم الهوى ـ جـ ١

الناس عمت القلوب واصمت الآذان وافتقدت المودة وانقطع النسل وهذا هو الظلم العظيم ...

﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾

﴿ فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون ﴾

كانت رسالة لوط عليه السلام مقاومة هذا الفساد ، واصلاح هذه النفس الأمارة التي تجد في الطهارة والعفة والشرف عملاً مستقبحاً فتجعل من الخير شراً ومن الشر خيراً ...

وهكذا تمضي الأحداث دون أن يكتب الهداية لهؤلاء الفاسقين الذين يعلنون على الملأ رغباتهم الدنيئة . وغرائزهم البهمية دون خوف أو وجل ...

والمعروف عن الزاني أنه يرتكب جريمته سراً لأنها ضد الفطرة[1] ، ولذلك لاثباتها أربعة شهود عدول ، أما اللوطي فانه يجهر برغبته ، ويعلن عن شذوذه . دون تفكير أو تعقل أو تدبر فيقع غالباً في براثن الجريمة من قتل النفس التي حرم الله ...

وهكذا تكون عاقبة المجرمين . فيأمر الله بعض الملائكة في هذه القرى التي انتشر فيها الفساد ... وينصب لهؤلاء الشرك الذي يفتتنون به وهم الملائكة انفسهم في صور بشرية ، وقد جاءوا ضيوفاً للوط عليه السلام .

---

(١) ابن القيم الجوزية ـ زاد المعاد ـ ص ٢ ـ ٢٠ جـ/٢

ويتجمع اللوطيون حول بيت لوط عليه السلام ويأمرونه باخراج ضيوفه ليفعلوا فعلتهم الشعناء بهم دون خجل أو حياء .. وهنا ينقلب الموقف ضدهم :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها و عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ .

ويتبين للمتأمل أن علاج اللوطية متي استشرت بين أهل قرية أو مدينة هو الهلاك الشامل ، لأنها مرض سرطاني خطير يصيب المجتمع وينتشر كالوباء الفتاك ولا علاج له بعذاب الحريق في الدنيا والآخرة وهذا ما فعله الله بقوم لوط الفاجرين .

إن إنحراف طبائع قوم لوط يدل على فساد الأمزجة ، وغلبة الهوى ، وتمكن الغواية الشيطانية من قلوبهم ، فكيف يمكن اصلاح هذه النفوس العفنة ، وكيف يمكن تغيير مواقفهم التي هي ضد الفطر السليمة وقد رسخت في عقولهم ونفوسهم وقلوبهم جميعاً .. ولا يمكن اقتلاع هذا الفساد الذي اعتادت عليه أمزجتهم ولا يستطيع منه خلوصاً لكفرهم وضلالهم .

موقف موسي عليه السلام وفرعون :

تربي موسي عليه السلام في بيت فرعون على كره منه إذ أراد ذبحه كما كان يذبح الذكور من المواليد ، لكن الله ألقي محبته في قلب زوجه آسية :

﴿ وقالت أمرأت فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسي أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ (القصص . ٩)

لكن فرعون قال لها قرة عين لك وليس لي ، فلم تنزل محبة الله له على قلبه ، إلاّ أنه رضخ لرجائها فلم يذبحه[1] ...

وتمضي الأحداث ويرجع الوليد موسي لبيت أمه لترضعه ، ويتردد على بيت فرعون لتراه آسية التي هداها الله إلى محبته .

لم تكن نشأة موسي عليه السلام في بيت فرعون الا اضطرارية ولو كان الأمر بيده ما دخل قصر فرعون لكن الظروف وحدها التي أوجدت علاقة شبه أبوية بينه وبين موسي عليه السلام ، فلم يحاكيه موسي في تصرفاته ، ولم يقتد به في كفره وشركه ، ولم يتطبع بأخلاقياته ، إنما نشأ على كراهية الظلم ، ومناصرة الضعيف والمحتاج وقد سبب له ذلك وقوعه في الأذى بسبب قتله القبطي الذي هو من آل فرعون .

وهذا الموقف النفسي يدل على أن موسي لم يكن يميل من قريب أو بعيد إلى فرعون الجبار في الأرض ، وانه كان يرى أنه من شيعة غير شيعة فرعون .

وإذا كان موسي عليه السلام قد عاش في قصر الملك وترعرع هناك فهذا لا يدل على أنه قد تطبع واكتسب عادات الأمراء وأولاد الملوك .

ولو كان هناك مودة وتعاطف بين فرعون وبينه لما هرب موسي عند قتله القبطي وهو الذي كان يسمى بموسي إبن فرعون[2] ... فكيف يقتص منه وهو الأمير الذي يقضي المنازعات ويحكم بين

---

(١) الصابوني ـ قصص الانبياء ـ موسي عليه السلام .
(٢) عبدالوهاب النجار ـ قصص الانبياء ـ موسي عليه السلام .

الناس لا سيما وأن ام يكن مقصوداً وإنما التأديب فحسب الا أن القدر كان له بالمرصاد إذ وكز القبطي فقتله ...

﴿ **فوكزه موسي فقضي عليه** ﴾

ودليلنا على ذلك خوف موسي وترقبه لما يمكن أن يحدث كما ورد في قول عز من قائل :

﴿ **فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين** ﴾

(القصص : ٢١)

هرب موسي إلى الفلاة حيث اعتصره الجوع ثم هداه الله إلى تقديم العون لابنتي فرعون إذ سقي غنمهما ، والتقي بشعيب عليه السلام والد الفتاتين ، حيث تم زواجه باحداهما التي كانت ذات فراسة وتوسمت في موسي الخير فقالت لوالدها :

﴿ **استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾

وتتوالى الأحداث ويرجع موسي بعد عشرة أعوام إلى مصر بوحي الٓهي ليدعو فرعون إلى الله ويشاركه في الدعوة هارون شقيقه ووزيره ورسوله ، يقول له فرعون عندما يدعوه إلى التوحيد :

﴿ **ألم نر بك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين** ﴾ .

وهذا يدل على أن اللقاء لم يكن مستحباً ، وأن فرعون كان يضمر العداوة والبغضاء لموسي من قبل ومن بعد ، ولم يكن الا انساناً متحجر القلب فان العشرة الطويلة وتربيته لموسي كانت تقتضي أن يرحب به وأن ينسي ما حدث إذ كان يحمل في نفسه بعض المودة ، ويشعر موسي بهذه الكراهية وذلك الحقد الأسود

الذي يملأ قلب فرعون فيرد عليه رداً بليغاً مفعماً :

﴿وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبدت بني اسرائيل﴾

إن المّن يكون في الاحسان ، لكن فرعون الجبار يمن على موسي لا لأنه أحسن إليه وإنما لأنه رعاه في بيت الشرك والظلم والضلال ، ويربط موسي بين ارتكابه جريمة القتل وبين حياة الضلال التي عاشها في القمع فيقول :

﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن موسي لم يتمتع في بيت فرعون[1] ولم يرض عن حياته عنده أبداً ، كما يبين موسي عليه السلام لفرعون انه تخلص بحمد الله من هذه الحمية التي كانت داخل نفسه أثناء تواجده في بيته ، وان الله تعالى أنعم عليه ووهبه علماً وحكما :

﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾

هذا التغير في شخصية موسي عليه السلام ، وهذا الرد الموجز البليغ جعل فرعون يفاجأ بالموقف فيقف موقف المتسائل ليقول لموسي متعجباً :

﴿وما رب العالمين﴾

ويشعر موسي عليه السلام بالعزة ، ويجد فرعون ضعيفاً متهافتاً وجاهلاً فيرد عليه في حزم وقوة :

﴿رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾

---

(١) هذا بخلاف ما يراه البعض من تمتع موسي في بيت فرعون .

ويحدث التحدي بين ممن وكافر . بين مخلص لله ومشرك بأنعمه . وتظهر معجزات موسي في صورة حسية حتي يسقط فرعون في يده . فيدخل موسي عليه السلام يده في جيبه فتخرج بيضاء كنور الشمس ويفزع فرعون ثم يدعو بطانته لتسانده ويقفوا معه ضد هذا الانسان الذي لم ير مثله في البلاد ...

ويجمع السحرة ويبطل موسي عليه السلام بعون من الله سحرهم ويخر السحرة مسلمين ويقولون غير خائفين من بطش فرعون :

﴿ انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقي ﴾

لكن الظالم لنفسه لا يرجع عن الضلال . وها هو فرعون . برغم كل المعجزات التي بينها له موسي غارق في الشرك أعمى لا يبصر أصم لا يسمع وقد تسلطت على نفسه الأمارة الرغبة الجامحة في سفك الدماء . والنزوع إلى الأهواء وموافقة الشيطان . وانذره الله على يد موسي عليه السلام وبعث له تسع آيات بينات ليرجع عن غيه ويعود إلى رشده . وهي القحط والجدب ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد لكن فرعون الطاغية لم يسلم لله بل ظل يعاند متجبراً يفسد في الأرض .

وأخيراً أوحى الله إلى موسي أن يخرج من أرض مصر إلى فلسطين ليلاً . ولما علم فرعون خرج وراءه في ٦٠٠ ألف جندي حتي لحق به . وكانت هذه نهاية فرعون وجنوده :

﴿ فأوحينا إلى موسي أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وازلفنا ثم الآخرين وانجينا موسي ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ .

المراجع

١ ـ **ابن القيم الجوزية** : الروح
٢ ـ **إبن القيم الجوزية** : زاد المعاد
٣ ـ **أبوالأعلى المودودي** : نظرية الاسلام السياسية
٤ ـ **أبو الحسن البصري** : أدب الدنيا والدين
٥ ـ **أبوالفرج الجوزي** : ذم الهوى
٦ ـ **أبوبكر بناني** : مدارج السلوك إلى مالك الملوك
٧ ـ **أبونعيم الأصفهاني** : حلية الأولياء
٨ ـ **أبوحامد الغزالي** : احياء علوم الدين ـ ج الأول ، الثاني ، الثامن
٩ ـ **أبوحامد الغزالي** : تنبيه المغترين
١٠ ـ **أبوطالب المكي** : قوت القلوب ـ ج الأول ، الثاني
١١ ـ **د . عزت راجح** : أصول علم النفس
١٢ ـ **د . عزت راجح** : الأمراض النفسية والعقلية
١٣ ـ **المحب الطبري** : الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ٢
١٤ ـ **بارودي** : المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر (ترجمة د. محمد غلاب)
١٥ ـ **تيتوس بيركارد** : دور الفنون الجميلة في التربية الاسلامية

ع٠ترجمة د. عثمان محمد عبدالوهاب)
١٦ ـ **جلال الدين السيوطي** : الجامع الصغير
١٧ ـ **جوستاف لوبون** : روح التربية (تعليق د. طه حسين)
١٨ ـ **الجيلاني** : الفتح الرباني
١٩ ـ **الجيلاني** : الغنية
٢٠ ـ **سيد عثمان** : علم النفس الاجتماعي التربوي
٢١ ـ **سيجموند فرويد** : الموجو في التحليل النفسي (ترجمة د. سامي محمود)
٢٢ ـ د . فايز محمد على الحاج : نظرية الفعل الشرطي عند الغزالي (بحث مقدم إلى ندوة علم النفس والاسلام سنة ١٩٧٩ الرياض) .
٢٣ ـ **عبدالعزيز جاويش** : الاسلام دين الفطرة
٢٤ ـ **عبدالوهاب النجار** : قصص الأنبياء
٢٥ ـ **مالك بن نبي** : المسلم في عالم الاقتصاد
٢٦ ـ **محمد الجبالي** : السوق الأوربية المشتركة
٢٧ ـ **محمد قطب** : منهج التربية المشتركة
٢٨ ـ **محمد قطب** : منهج الفن الاسلامي
٢٩ ـ **د. محمد على أبوريان** : تاريخ الفكر الفلسفي (افلاطون)
٣٠ ـ **محمد على الصابوني** : قصص الأنبياء
٣١ ـ **محمد فرغلي** : مرضي النفس في تطرفهم واعتدالهم
٣٢ ـ **هنري برجسون** : منبعا الأخلاق والدين (ترجمة د. الدروبي)
٣٣ ـ **ياقوت الحموي** : معجم البلدان
٣٤ ـ **يوسف كرم** : تاريخ الفلسفة اليونانية

فهرس